البــاب الثــانى

تأثير الديمقراطية فى مشاعر الأمريكيين وعواطفهم

الفصـــل الأول

الأمم الديمقراطية تحب المساواة حباً أقوى وأدوم من حبها الحرية

لا أرانى بحاجة إلى القول بأن حب المساواة هذا، يعد أولى تلك العواطف التى نشأت من تساوى أحوال الناس الاجتماعية، وأقواها جميعاً. فلا يدهش القارىء إذن إن أنا تحدثت إليه عن هذه العاطفة قبل غيرها من العواطف الأخرى.

فقد لاحظ كل امرىء فى عصرنا أن حب المساواة هذا يزداد كل يوم رسوخاً فى نفوس الناس، وبخاصة فى فرنسا فكم من مرة قيل بأن تعلق أبناء عصرنا بالمساواة لأشد من تعلقهم بالحرية وأوثق منه[1]. وإذ لم يتوصل أحد بعد إلى تعرف أسباب هذه الحقيقة، فلا غرو أن حاولت البحث عنها هنا.

فلنتصور نقطة قصية متطرفة يمكن أن تلتقى عندها الحرية والمساواة، وتمتزج إحداهما بالأخرى. ولنفرض أن جميع أفراد الشعب يشتركون فى الحكم؛ ولكل واحد منهم فيه حق مساو للآخر. ولما كان كل شخص لايختلف عن الآخرين، لم يكن منهم من يستطيع أن يمارس سلطة استبدادية عليهم، فالناس لايكونون أحراراً إلا لأنهم متساوون كل المساواة، ولا يكونون متساوين تمام المساواة إلا لأنهم استكملوا حريتهم. فإلى هذه الحالة المثالية تتجه الأمم الديمقراطية، وهذا هو أكمل شيء يتسنى للمساواة أن تتخذه فى هذه الدنيا؛ ولكن ثمت أشكال كثيرة أخرى لاتقل رغبة تلك الأمم فيها عن ذلك الشكل، وإن كانت دونه كمالاً.

هذا، ومن الميسور أن يقام مبدأ المساواة فى المجتمع المدنى من غير أن يكون هذا المبدأ مسيطراً فى عالم السياسة. فقد يكون للناس فى هذا المجتمع حقوق متساوية، من حيث استمتاعهم بنفس الملذات، والالتحاق بنفس المهن، وبالتردد على نفس المحلات - جملة القول، لهم الحق فى العيش بنفس الطريقة والسعى وراء جمع المال بطريقة واحدة، على الرغم

(١) كثيراً ما يستشهد على ذلك بنابوليون بونابرت فقد نال شهرة وحظوة كبيرتين لدى الناس. فمع أنه صادر الحرية، حرص على استيفاء المساواة بينهم.

من أنهم لايشتركون جميعا بأنصبة متساوية فى شئون الحكم. بل إن نوعاً من المساواة قد يقوم حتى فى عالم السياسة على الرغم من عدم وجود حرية سياسية فيه، فقد يكون المرء مساوياً لجميع مواطنيه، إلا فيمن هو سيد الجميع دون تمييز، وهو الذى يختار من بينهم من يعهد إليهم بسلطانه؛ ولا يشق علينا أن نتصور أشكالاً أو نظريات أخرى تتوافر للناس بحسبها، مساواة كبيرة إلى جانب مؤسسات حرة، حرية كبيرة كانت أو صغيرة، بل حتى إلى جانب مؤسسات لاحرية فيها مطلقاً.

ومع أن الناس لايمكن أن يصيروا متساوين مساواة مطلقة إلا إذا كانوا أحراراً كل الحرية، مما يترتب عليه إدماج المساواة، وقد بلغت أقصى مداها، فى الحرية، وعندئذ يكون لدينا سبب وجيه يدعونا إلى تمييز الواحدة عن الأخرى، فميل الناس إلى الحرية، وميلهم إلى المساواة، هما فى الواقع شيئان متمايزان، ولاحرج من أن أضيف إلى ذلك، أنهما يعدان فى الأمم الديمقراطية شيئين غير متساويين.

وبمزيد من البحث والاستقصاء يتبين لنا أن فى كل عصر حقيقة خاصة غالبة تتصل بها سائر الحقائق؛ وتؤدى هذه الحقيقة عادة إلى فكرة حافلة، أو إلى شهوة طاغية تجتذب إليها جميع المشاعر، وكل الآراء الذائعة فى العصر، ويجرفها معها حتى لتكون أشبه بمجرى عظيم تصب فيه جميع الروافد المجاورة.

لقد ظهرت الحرية فى العالم فى أوقات مختلفة، وبأشكال شتى. فهى لم تكن مرتبطة أبداً بحالة اجتماعية معينة، دون غيرها من الأحوال. ولا مقصورة على البلاد الديمقراطية وحدها، فلابد أن تكون إذن هى السمة التى تتميز بها العصور الديمقراطية عن سائر العصور، أما الحقيقة الخاصة الغالبة، التى تتميز بها تلك العصور. فهى المساواة فى الأحوال الاجتماعية؛ وأما الشهوة الطاغية على الناس فيها، فالغرام بهذه المساواة، فلا تسألن عن سبب لتلك الروعة العجيبة التى افتتن بها الناس فى العصور الديمقراطية واجتذابهم إلى العمل على أن يكونوا متساوين؛ ولا عن تلك الأسباب الخاصة التى تجعلهم يؤثرون الاستمساك بالمساواة، ذلك الاستمساك الشديد، عن سائر الميزات التى يقدمها إليهم المجتمع. فالمساواة هى السمة التى تتميز بها العصور التى يعيشون فيها. وفى هذا وحده ما يكفى لبيان السبب الذى دعاهم إلى إيثارها على ما عداها.

ولكن ثم عدة أسباب، غير هذا السبب تدفع الناس فى هذه العصور إلى أن يفضلوا المساواة على الحرية عادة.

فإن حدث ونجحت أمة ما فى أن تقضى بنفسها على المساواة الغالبة على بلادها أو على الأقل، فى التقليل منها، فإنها لم تصل إلى ذلك إلا بعد جهود طويلة شاقة، إذ يجب عليها أن تعدل أحوالها الاجتماعية، وتلغى قوانينها، وتجدد آراءها، وتغير عاداتها، وتبدل أخلاقها، أما الحرية السياسية فما أيسر فقدانها! فحسب الأمة أن تهمل الاستمساك بها، فإذا بهذه

الحرية تفلت من أيديها. ومن ثم كان الناس لايتشبثون بالمساواة لأنها عزيزة عليهم فحسب، بل كذلك، لأنهم يعتقدون بأنها يجب أن تدوم لهم.

هذا، وقد يضر التطرف فى الحرية السياسية بسلامة الأفراد وهدوئهم، وبممتلكاتهم الموروثة، بل وبحياتهم كذلك، وهذا أمر لاخفاء فيه حتى على ذوى العقول المحدودة غير الفاحصة. وعلى النقيض من ذلك، لايستطيع غير الرجال اليقظين البعيدى النظر أن يدركوا الأخطار التى تهددهم بها المساواة، وهم عادة يتفادون الإشارة إليها أو ذكرها، لأنهم يعلمون أن الكوارث التى يخشونها لن تصيب غير الأجيال المقبلة، وهى أجيال لم يعد يفكر فيها غير فئة من أهل الجيل. هذا، والبلايا التى قد تجرها الحرية على البلاد بلايا مباشرة وواضحة للجميع، ويتأثر بها الناس كلهم تأثراً كبيراً كان أو قليلاً، أما الشرور التى قد يجرها على الناس الإفراط فى المساواة فلا تتكشف لهم ببطء، لأنها تتسرب إلى الهيئة الاجتماعية تدريجياً، ولا ترى إلا من بعيد. وفى اللحظة التى تصبح فيها عنيفة بارزة الأثر، تكون العادة قد جعلت الناس يألفونها فلايعودون يشعرون بها.

أما المزايا التى تأتينا بها الحرية، فلا يستبين أثرها إلا على مر الزمن، ومن السهل كل السهولة أن يجد الإنسان فى إدراك السبب الذى يحدثها، على حين أن مزايا المساواة تتجلى مباشرة، ويتيسر تتبعها دائماً وإرجاعها إلى الأصل الذى عنه صدرت.

هذا، وقد تتيح الحرية السياسية، من وقت لآخر لعدد من المواطنين متعاً ومسرات رفيعة؛ على حين تمنح المساواة كل الناس مقداراً من المتع الصغيرة فى كل يوم؛ فمباهج المساواة يشعر بها الناس جميعاً فى كل لحظة تمر بهم، فضلاً عن أنها فى متناولهم أجمعين. فيشعر بها أنبل الناس، كما يستعذبها ويستمتع بها ذوو النفوس العادية، فالشهوة التى تخلقها المساواة شهوة قوية نشيطة وعامة فى وقت واحد، ولا يستطيع الناس أن يستمتعوا بالحرية السياسية من غير أن يدفعوا ثمنها بضع تضحيات، ولا هم يحصلون عليها أبداً إلا بالكثير من الجهود، على حين أن المسرات التى تؤدى إليها المساواة تتوافر من تلقاء نفسها، فيبدو أن كل حدث من الأحداث الصغار التى تجرى فى الحياة الخاصة يؤدى إلى إيجاد هذه المسرات، وحسب الإنسان أن يعيش، كى يستمتع بها.

تحب الشعوب الديمقراطية المساواة دائماً، وفى كل عصر من العصور، ومع ذلك فثم عهود معينة يبلغ فيها غرام الناس بها درجة تقارب حد الجنون، وذلك عندما ينهار النظام الاجتماعى القديم بعد أن ظل مهدداً بالسقوط أمداً غير قصير، ولا يتم هذا الانهيار إلا بعد صراع داخلى مرير، وبعد تحطيم الحواجز والسدود التى تفصل المواطنين بعضهم عن بعض؛ وعندئذ يهرع الناس إلى المساواة، ويندفعون إليها كما لو كانت غنيمة اغتنموها، ثم هم يستمسكون بها استمساكهم بذخر يعضون عليه بالنواجذ، خشية أن يسلبهم أحد إياه؛ فحب المساواة ينفذ إلى قلوب الناس ويتغلغل فيها ويتسع حتى يملأ كل جوانبها فلا تقل لهم

إنهم باستسلامهم الأعمى لهذه الشهوة وحدها، يلحقون الضرر بأعز ما لديهم من مصالح، لأنهم سيصمون آذانهم عنك؛ ولا تبين لهم أن الحرية تفلت من أيديهم، فى أثناء ما يولون وجوههم شطر اتجاه آخر؛ إنهم عمى لا يبصرون؛ أو أنهم لا يستطيعون أن يميزوا فى هذا العالم سوى شيء واحد جدير بأن يطلبوه ويسعوا وراءه جادين.

إن كل ما سبق أن قلته ليصدق على الأمم الديمقراطية جمعاء، أما ما سيلى فيصدق على الفرنسيين وحدهم. فلم تنشأ الحرية ولم تترق فى معظم الأمم الحديثة، وبخاصة فى شعوب القارة الأوربية، إلا عندما أخذت الأحوال الاجتماعية تتجه نحو المساواة، ونتيجة لهذه المساواة نفسها. لقد كان الملوك المستبدون أعظم من عمل على جعل رعاياهم كلهم فى مستوى واحد. فقد كانت المساواة فى هذه الأمم أسبق من الحرية فيها، وهكذا كانت المساواة أمراً معروفاً عندما كانت الحرية لاتزال بدعة جديدة. فقد خلقت المساواة لنفسها عادات وآراء وقوانين خاصة، على حين ظهرت الحرية وحدها، ولأول مرة فى الوجود. وهكذا كانت الحرية لاتزال مسألة رأى، وميل، بينما كانت المساواة قد تسللت إلى عادات الشعب وسيطرت على آدابه الأخلاقية، وصبغت كل عمل فى الحياة بصبغة خاصة، مهما كان ذلك العمل وضيعاً، فكيف بنا لانتعجب إذن إن آثر معاصرونا الواحدة على الأخرى؟

وفى اعتقادى أن الشعوب الديمقراطية تميل بفطرتها إلى الحرية، فإن تركت هذه الشعوب وشأنها سعت وراءها وأولعت بها، وتألمت كل الألم إن هى حرمتها يوماً ما، أما من حيث المساواة فغرامهم بها عنيف، وموصول لاينقطع، وقوى لايقهر، فتراهم يطالبون بالمساواة فى الحرية، وإن هم لم يحصلوا عليها ظلوا يطالبون بها حتى فى العبودية؛ فأسهل عليهم أن يتحملوا الفقر والذل والهمجية، من أن يطيقوا الأرستقراطية.

ويصدق هذا على كل العصور، ولا سيما عصرنا الحاضر، فجميع الناس (وجميع الدول) الذين يبغون أن يناضلوا ضد هذه الشهوة التى لاتقاوم سيكون نصيبهم الهزيمة وسيضارون بها، وقد يهلكون بسببها. فالحرية لايمكن أن تقوم فى عصرنا من غير مساواة، بل إن الاستبداد نفسه لايستطيع أن يحكم إلا بتأييد منها.

الفصـــل الثـــانى

الفردية فى البلاد الديمقراطية

أوضحت من قبل السبب فى أن كل إنسان فى عصر المساواة يستمد آراءه من البحث عنها فى ذات نفسه، وأوضح الآن كيف حدث فى العصور نفسها أو وجَّه الإنسان كل عواطفه نحو نفسه وحدها . هذا، ولفظ الفردية تعبير جديد ولدته فكرة جديدة، فلم يكن أجدادنا يعرفون إلا لفظة «الأنانية»، والأنانية محبة المرء نفسه حباً عارماً مسرفاً يجعل صاحبه يربط كل شىء بذاته هو، ويؤثرها على كل شىء فى الوجود، أما «الفردية» فعاطفة ناضجة هادئة تجعل كل عضو من أعضاء «الجماعة» ميالاً إلى الانفصال عن جملة بنى جنسه، فينتبذهم هو وأسرته وأصدقاؤه؛ ثم بعد أن يكون لنفسه هكذا مجتمعاً صغيراً خاصاً، إذا به يدع المجتمع الكبير وشأنه، راضياً مختاراً. فالأنانية تنشأ من الغريزة العمياء، على حين تنشأ الفردية عن حكم خاطىء أكثر مما تنشأ عن وجدان سقيم، فهى ترجع إلى نقصان فى العقل بقدر ما ترجع إلى انحراف أو مرض فى القلب .

فالأنانية تفسد بذور كل فضيلة، أما الفردية فلا تضعف فى البداية إلا الفضائل الخاصة بالحياة العامة، ولكنها تهاجم فى النهاية سائر الفضائل وتقضى عليها؛ وينتهى بها الأمر إلى أن تندمج فى الأنانية ذاتها. ذلك أن هذه الأنانية رذيلة قديمة قدم العالم، فهى لا تختص بشكل معين من أشكال المجتمع أكثر مما تختص بغيره، أما الفردية فمردها إلى أصل ديمقراطى، وتهدد أن تنتشر بالنسبة عينها التى تنتشر بها المساواة .

وفى الأمم الأرستقراطية، حيث تظل الأسر قروناً طوالاً ثابتة على حالة واحدة، ومستقرة فى الغالب فى بقعة واحدة، تظل جميع الأجيال فيها تبدو وكأنها متعاصرة، حتى ليكاد كل امرىء أن يعرف دائماً أجداده ويوليهم الاحترام الواجب لهم، ويخيل إليه أنه يرى حتى ذراريه، ويحبهم. ويفرض على نفسه راضياً واجبات نحو هؤلاء الذرارى وأولئك الأجداد؛ وكثيراً ما يضحى بملذاته الشخصية فى سبيل من سبقوه، ومن سيخلفونه من بعده. وزيادة على ذلك، فالمؤسسات الأرستقراطية تؤدى إلى ربط كل إنسان بعدد من مواطنيه. ولما كانت الطبقات فى الشعب الأرستقراطى متمايزة ومعلمة، ودائمة، صار أفراد كل طبقة يعدون طبقتهم أشبه شىء بوطن مصغر لهم، فهى ملموسة أكثر من الوطن

الكبير وأعز منه عليهم. ولما كان جميع المواطنين فى البلاد الأرستقراطية يشغلون مراكز ثابتة، كل مركز منها فوقه آخر، وترتب على ذلك أن صار كل منهم يرى فوقه رجلاً أسمى منه مقاماً ولا غنى عنه لحمايته، ويرى دونه رجلاً آخر، له أن يطالب بمعاونته ونصرته، فالناس الذين يعيشون فى أزمنة أرستقراطية[1] متصلون إذن صلة متينة بشىء خارج دائرتهم الخاصة، ويميلون دائماً إلى نسيان أنفسهم، ولا شك فى أن فكرة الإخاء الإنسانى العامة كانت ضعيفة فى تلك الأزمنة، وغامضة كذلك، وكان يندر أن يفكر الناس فى تكريس أنفسهم فى العمل فى سبيل إسعاد البشرية، لكنهم كثيراً ما كانوا يضحون بأنفسهم فى سبيل بعض الناس. أما فى العصور الديمقراطية فالأمر على العكس من ذلك، فعندما تكون واجبات كل فرد نحو بنى جنسه أوضح بكثير مما هى فى العصور الأرستقراطية، فالإخلاص فى خدمة شخص معين يصبح أمراً نادراً كل الندرة، ذلك لأن رابطة الأخوة البشرية وإن كانت امتدت فإنها تكون قد استرخت أيضا.

ففى الأمم الديمقراطية تظهر أسرات جدد باستمرار، وتختفى أخرى، وكل ما يتبقى من الأسر القديمة تتغير أحواله ومظاهره، فخيوط الزمن تتقصف فى كل لحظة، وتنمحى آثار الأجيال. فسرعان ما ينسى السابقون، أما اللاحقون فليس لأحد فكرة عنهم: فاهتمام الإنسان مقصور على من حوله وحدهم، وكلما ازداد اقتراب طبقة أخرى وازداد اختلاطهم بها أصبح أعضاؤها غير متمايزين، وفقدوا مشخصات طبقتهم، لقد صاغت الأرستقراطية سلسلة من جميع أعضاء المجتمع، تبدأ من الفلاح وتنتهى بالملك، فجاءت الديمقراطية وحطمت هذه السلسلة وفصلت كل حلقة فيها عن الأخرى.

وكلما تساوت الأحوال الاجتماعية ازداد عدد الأشخاص الذين، وإن كانوا لا يعدون من الأغنياء، وليس لهم من القوة ما يخولهم ممارسة نفوذ واسع على إخوانهم، حصلوا على ثقافة وثروة تكفيان لسد كل احتياجاتهم؛ أو كانوا احتفظوا بما كان لديهم منهما من قبل؛ فهم ليسوا مدينين بشىء لأحد ما، ولا هم ينتظرون شيئاً من أحد، فقد ألفوا أن يعتبروا أنفسهم أنهم وحدهم، ومستقلون عن سائر الناس، وأنهم ليتخيلون أن مصيرهم كله فى أيديهم هم.

وهكذا يتبين لنا أن الديمقراطية لا تجعل كل إنسان ينسى أجداده فحسب، بل إنها لتخفى عنه حتى ذراريه، وتفصل عنه معاصريه، فهى تضطره إلى الاقتصار على نفسه وحده دائماً، وتتهدده بأن تقضى عليه فى النهاية بالعزلة التامة.

---

(١) يقصد المؤلف بالذين يعيشون فى أزمنة أرستقراطية كالاقطاعيين، وأتباعهم.

الفصـــل الثـالث

الفردية أقوى فى أعقاب ثورة ديمقراطية منها فى أى عصر آخر

فى الفترة التى تعقب قيام جماعة ديمقراطية على أنقاض الأرستقراطية، قد يذهل الإنسان من جراء ما يرى من انعزال الناس بعضهم عن بعض، ومن جراء ما يترتب على هذا الانعزال من أنانية، فلا تشتمل هذه الأمم الديمقراطية على عدد كبير من المواطنين المستقلين فحسب، بل إنها لتحفل دائماً بالرجال الذين لم يتمتعوا باستقلالهم إلا بالأمس القريب، فثملوا بما حصلوا عليه من قوة جديدة، وجعلوا يبالغون فى الاعتزاز بثقتهم بقوتهم هذه، وإذا كانوا يتصورون أن يوماً سيأتى عليهم يحتاجون فيه إلى الاستعانة بأحد من بنى جنسهم لم يتحرجوا من أن يعلنوا فى الملأ أنهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم.

ومن النادر أن تستسلم أرستقراطية ما، إلا بعد نضال طويل تحتدم فيه خصومات وعداوات مريرة بين طبقات المجتمع المختلفة، وتظل هذه العداوة قائمة حتى بعد سحق الأرستقراطية؛ وتتجلى آثارها ظاهرة فى ذلك الاضطراب الديمقراطى الذى يعقب هزيمتها، فالأعضاء الذين كانوا فى أسمى درجات السلم الاجتماعى المنهار لا ينسون بسرعة ما كانوا ينعمون به من عظمة سلفت، وسيظلون يعدون أنفسهم غرباء وسط المجتمع الذى أعيد تنظيمه، ويعدون جميع الناس الذين سوتهم الجماعة بهم ظالمين؛ فما قد يصيب هؤلاء الظلمة من أحداث لا يستثير فيهم أى عطف. لقد فقدوا أندادهم وأقرانهم، ولم يعودوا يشعرون أن ثمة مصلحة مشتركة تربطهم بمصائرهم؛ وإذ صار كل منهم يقف بمنأى عن الآخرين، فقد خيل إليه أنه لم يعد مطالباً بأن يعنى إلا بشئونه وحده. وأما الذين كانوا، على العكس من ذلك، فى الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعى، ثم رفعتهم الثورة المفاجئة إلى المستوى العام، فلا يستطيعون أن يتمتعوا باستقلالهم الذى نالوه حديثاً من غير أن يساورهم قلق خفى، فإن هم صادفوا بعضاً من رؤسائهم السابقين وشعروا بأنهم صاروا وإياهم فى مستوى واحد وقفوا بمنأى منهم وحدجوهم بأنظار حداد تنم عن الشماتة والخوف معاً.

ففى نشأة المجتمعات الديمقراطية نجد المواطنين إذن أميل ما يكونون إلى الانعزال، فإن كانت الديمقراطيات لاتدفع الناس إلى التقارب، فالثورات الديمقراطية تجعلهم يتحاشون بعضهم بعضاً، ويحتفظون فى عصر المساواة، بتلك العداوات التى كانت قد خلقتها فيهم حالة اللامساواة.

فأكبر ميزة امتاز بها الأمريكيون، أنهم وصلوا إلى حالة الديمقراطية من غير حاجة إلى الاكتواء بنار حرب ديمقراطية، وأنهم ولدوا متساوين من غير حاجة إلى أن يعملوا على أن يصيروا كذلك.

الفصـــل الرابـع

يواجه الأمريكيون نتائج الفردية بإنشاء المؤسسات الحرة

من طبائع الاستبداد أنه مخواف كثير الارتياب فى الناس، فيرى فى التفريق بينهم خير ضمان لبقائه، فلا غرو أن دأب يوجه كل همه إلى استبقائهم متفرقين منعزلين، فليس ثمة رذيلة من رذائل البشر تظفر لديه بالحظوة والقبول بقدر ما تظفر به الأنانية، فما أيسر على المستبد أن يغفر لرعاياه عدم حبهم إياه، ماداموا لايحبون بعضهم بعضاً؛ فهو لا يسألهم أن يعاونوه على النهوض بأعباء الدولة، بل حسبه منهم ألا يطمعوا فى حكمها؛ وإنه ليدمغ الذين يجمعون صفوفهم ويضمون جهودهم ليتعاونوا على إسعاد البلاد، بأنهم متمردون، دعاة الاضطراب والفرقة؛ فنراه يحرف معانى الألفاظ عن مواضعها، فيمتدح من لايكترثون لأحد سوى أنفسهم فيسميهم بالمواطنين الصالحين.

وهكذا نجد الرذائل التى يولدها الاستبداد هى نفسها التى تؤيدها المساواة، وتنميها، فهما أمران يكمل كل منهما الآخر، ويتعاونان بطرق خبيثة مؤذية، فالمساواة تقيم الناس إلى جانب بعضهم البعض من غير أن تربطهم بأية رابطة مشتركة، أما الاستبداد فيقيم بينهم الحواجز والأسوار لتستبقيهم منعزلين متفرقين، فالمساواة تجعلهم غير مبالين لمراعاة مصائر سواهم من بنى جنسهم، على حين يجعل الاستبداد عدم الاكتراث العام نوعاً من الفضيلة العامة.

فالاستبداد خطر إذن فى جميع العصور، ولكنه يخشى منه كل الخشية فى العصور الديمقراطية بخاصة، وليس يشق علينا أن ندرك أن الناس فى هذه العصور نفسها، شديدو الحاجة إلى الحرية، فعندما تجبر أعضاء الجماعة على العناية بالشئون العامة يضطرون إلى الابتعاد عن الدائرة التى فيها مصالحهم الخاصة، وقد ينتزعون من آن لآن من التأمل فيما يجرى فى نفوسهم، فعندما يأخذ الإنسان فى معالجة الشئون العامة بالاشتراك مع غيره، يبدأ يشعر بأنه ليس بالمستقل عن بنى جنسه كما خيل إليه لأول وهلة، وأن عليه أن يكثر من التعاون معهم إن شاء أن يعاونوه.

فعندما يتولى الشعب الحكم لايكون هناك شخص واحد لايشعر بما لحسن رأى الشعب فيه من قيمة؛ أو من لايسعى وراء الحظوة عنده بأن يتودد إلى أولئك الذين سيعيش بين ظهرانيهم، ويعمل على أن يجتذب حسن تقديرهم له، فكثير من الشهوات التى تميت قلوب الناس وتفرقها تضطر إذن إلى النكول والاختفاء وراء ستار، فتنتشر الكبرياء، ولا يستطيع الازدراء أن يسفر عن وجهه، وتخشى الأنانية نفسها، ولما كانت معظم الوظائف فى الحكومات الحرة تملأ بطريقة الانتخاب، صار الذين كانت عقولهم السامية، أو آمالهم العراض مقيدة كل التقييد فى حياتهم الخاصة، يشعرون دائماً بأنهم لايستطيعون أن يستغنوا عمَّن حولهم من الناس، ففى مثل هذه الأوقات يتعلم المواطنون إذن أن يفكروا فى بنى جنسهم، يدفعهم إلى ذلك طموحهم نفسه؛ وكثيراً ما يجدون بشكل ما، أن مصلحتهم تقتضيهم أن ينسوا ذواتهم.

هذا وقد يعترض علىَّ هنا باعتراض مستمد من طرق الدس والغدر التى تجرى فى الانتخابات، وبالوسائل الخبيثة التى يستخدمها المرشحون فى السعاية بخصومهم، فهذه أسباب للعداوة تزداد كلما تكرر حدوث الانتخابات العامة بكثرة، ولا شك فى أنها مستطيرة. ولكنها مع ذلك شرور عابرة، تزول، على حين أن ما يترتب عليها من منافع باق، يدوم، فرغبة بعض الناس فى النجاح فى الانتخابات قد تدفعهم إلى العداوة العنيفة مدة من الزمن، ولكن هذه الرغبة نفسها تؤدى بجميع الناس فى النهاية إلى أن يتعاونوا. وإن حدث عرضاً أن كانت الانتخابات تفرق بين الصديقين، فقد يجمع نظام الانتخاب بين الكثيرين من المواطنين ويلم شعثهم، ولولا هذا النظام لظلوا لايعرف الواحد منهم الآخر، فالحرية تؤدى إلى عداوات شخصية، على حين يولد الاستبداد فى الناس عدم اكتراث عام.

لقد ناضل الأمريكيون ضد نزعة المساواة إلى عزل الناس وتفريقهم بعضهم عن بعض، بأن أنشأوا المؤسسات الحرة، فنجحوا فى قهر تلك النزعة. ولم يكن المشترعون الأمريكيون يعتقدون أن تمثيل الأمة كلها تمثيلاً عاماً يكفى أن يدفع عن المجتمع داء يعدونه متوطناً فى كيان الجماعة الديمقراطية، وخبيثاً، قاضياً عليه فى الوقت نفسه؛ بل رأوا من الخير أن ينفثوا روح الحياة السياسية فى كل جزء من أجزاء الدولة حتى يستكثروا من فرص العمل الجماعى لكل أعضاء الجماعة، مما يشعرهم باستمرار باعتمادهم بعضهم على بعض، ولقد كانت فكرة حكيمة رائعة حقاً. فالمسائل العامة فى أى قطر من الأقطار لاتشغل إلا بال الزعماء السياسيين. وهم لايجتمعون إلا من حين إلى حين، وفى مواضع معينة، ولما كانوا كثيراً ما يغيبون بعد ذلك عن بعضهم البعض، ولا يتراءون إلا نادراً تعذر أن تنعقد بينهم روابط وثيقة ودائمة، ولكن إن كان الغرض من الاجتماع إدارة الشئون لبقعة معينة، كالقرية أو المركز مثلاً، بوساطة ناس من أهاليها ذاتهم، صار هؤلاء الناس فى أنفسهم على اتصال دائم ميسور بعضهم ببعض، فيضطرون بشكل ما إلى التعارف والتراضى، وإلى أن يتكيفوا بعضهم ببعض.

فليس من الهين إخراج رجل من دائرته الخاصة، لتجعله يهتم بشئون الدولة كلها وبمصائرها، فهو لا يدرك فى وضوح ما عسى أن يكون لمصائر الدولة هذه من تأثير فيما سيصيبه هو من خطر فى المستقبل. أما إذا كان الموضوع خاصاً بمسألة شق طريق فى ضيعة، أدرك على الفور أن ثمة صلة بين هذه المسألة العامة الصغيرة، وبين أعظم شأن من شئونه الخاصة. وعندئذ تتكشف له تلك الصلة الوثيقة التى تربط مصلحته الخاصة بالمصلحة العامة، من غير حاجة إلى أن يبينها له أحد ما، وبذلك يتيسر إنجاز الكثير عن طريق العهد إلى المواطنين بإدارة الشئون الصغرى، أكثر مما يمكن أن ينجز عن طريق تخويلهم الإشراف على المسائل الكبرى بقصد استثارة اهتمامهم بالمصلحة العامة وإقناعهم بأنهم بحاجة دائمة إلى بعضهم البعض للعناية بإنجاز المسائل العامة هذه، إن عملاً باهراً يتم على يديك قد ينيلك الحظوة لدى الشعب فى طرفة عين، ولكن إن شئت أن تحظى بحب الناس الذين حولك وباحترامهم فعليك أن تقوم لهم بسلسلة طويلة من الخدمات الصغيرة، ومن مساع حميدة مستورة تبذلها فى سبيلهم؛ ومن دءوبك على الظهور بمظهر الرفيق بهم؛ ومن أن تشتهر بينهم بالنزاهة وعدم تمييز بعض الناس على بعض، فالحريات المحلية التى تجعل عدداً كبيراً من المواطنين يقدرون مودة جيرانهم وذوى قرباهم، تزيد تقريب الناس بعضهم من بعض باستمرار وتحملهم على أن يتعاونوا على الرغم من تلك النزعات التى تعمل على التفريق بينهم.

هذا، ويعنى أثرياء المواطنين فى الولايات المتحدة كل العناية بألا يقفوا بمعزل عن الشعب، بل يعملون على العكس من ذلك، على التقرب منهم باستمرار، فهم يرتاحون إلى الاستماع إلى ما يقولون، ويتحدثون إليهم فى كل يوم؛ لعلمهم أن الأثرياء فى البلاد الديمقراطية بحاجة دائمة إلى الفقراء، إن الإنسان ليستطيع فى هذه البلاد أن يحبب الفقراء فى نفسه بحسن المعاملة أكثر مما يجتذبهم بما يغدقه عليهم من واسع الخيرات. هذا، وإن ضخامة هذه الخيرات نفسها، التى تكشف لهم عن مدى الفرق بين الغنى والفقير، لتجرح نفوس المستفيدين منها، وتحدث فيهم شيئاً من الألم الخفى، على حين أن لاصطناع البساطة فى حسن المعاملة، روعة ترضيهم كل الرضى، وإظهار الألفة فى المعاملة الطيبة تجتذبهم دائماً، بل إن بعض الخشونة فيها قد لا تكون جارحة لهم فى كل حال، هذه حقيقة لا تستسيغها عقول الأغنياء، ولا هى ترسخ فيها على الفور، بل إنهم يقاومونها عادة، مادامت الثورة قائمة؛ ولا هم يعترفون بها عقب الانقلاب مباشرة، إنهم، لا ريب، على استعداد لعمل ما فيه الخير للشعب، ولكنهم يؤثرون مع ذلك أن يعملوا على استبقائهم على بعد باع منهم، إذ يخيل إليهم أن فى هذا الكفاية لهم، ولكنهم فيما خالوا مخطئون كل الخطأ. إنهم قد ينفقون أموالاً طائلة، على من حولهم، ولكنهم مع ذلك لا يجتذبون قلوبهم. إن هؤلاء لم يطالبوهم بأن يضحوا بأموالهم فى سبيلهم، بل كل ما يطالبونهم به لا يعدو النزول عن كبريائهم وعجرفتهم.

يقولون إن كل امرىء فى الولايات المختلفة يبذل قصارى جهده فى اختراع الوسائل التى تعاون على زيادة الإنتاج، وثروة الجماعة، وكل ما يسد احتياجاتها، فأغزر الناس علماً وأوسعهم ثقافة فى كل مركز (كانتون) يستغلون علمهم وثقافتهم باستمرار للكشف عن أسرار جديدة، وحقائق جديدة، تعين على زيادة الرخاء العام فى البلاد فإذا ما توصلوا إلى كشف من هذا القبيل سارعوا إلى تقديمه للشعب.

فإن نحن أمعنا فى دراسة شتى الرذائل، ونقاط الضعف المختلفة التى كثيراً ما تتجلى فى الذين يتولون الحكم فى أمريكا، لاستولت علينا الدهشة مما نشاهده، مع ذلك، من رخاء وازدهار، ولكنها دهشة فى غير محلها. فليس الموظفون والحكام المنتخبون هم الذين يجعلون أمريكا الديمقراطية تزدهر وتسعد، ولكنها ازدهرت وسعدت لأن الموظفين ينتخبون.

ليس من الإنصاف أن نقول أن وطنية الأمريكيين، أو الغيرة التى يبديها كل منهم على إسعاد مواطنيه، خالية من كل إخلاص، فعلى الرغم من أن المصلحة الخاصة هى التى توجه الشطر الأعظم من أفعال الناس فى الولايات المتحدة، كما هى الحال فى البلاد الأخرى، فإنها لاتوجه أفعالهم كلها، فكثيراً ما رأيت أمريكيين يقومون بتضحيات كبيرة فى سبيل المصلحة العامة، وشاهدت مئات المرات أنهم لم يقصروا أبداً فى تقديم المعونة الخالصة بعضهم لبعض. فالمؤسسات الحرة التى عند أهالى الولايات المتحدة، والحقوق السياسية التى يمارسونها ممارسة فعالة، تذكر كل مواطن منهم على الدوام، وبطرق شتى لاحصر لها، بأنه يعيش فى مجتمع، فهذه المؤسسات توجه عقله باستمرار إلى أن واجب الناس ومصالحهم تقتضيهم أن يجعلوا أنفسهم نافعين لبنى جنسهم. وإذ لايرى المواطن منهم أى سبب خاص يدعوه إلى كراهيتهم، لأنه ليس أبداً سيداً عليهم، ولا عبداً لهم- اتجه قلبه بسرعة إلى عمل الخير لهم، فالناس يتجهون إلى العمل للمصلحة العامة بالضرورة والحاجة أولاً. ثم فيما بعد باختيارهم ورضاهم، فما كان فى البداية عملاً مقصوداً يصبح أشبه ما يكون بنزعة فطرية فيهم؛ وبفضل العمل على ما فيه الخير لإخوانه المواطنين يكتسب المرء فى النهاية الميل إلى خدمتهم، حتى يصبح هذا الميل عادة راسخة فيه.

كثيرون فى فرنسا هم الذين يعدون المساواة فى الظروف شراً، ويعدون الحرية السياسية[1] شراً آخر. فإن هم اضطروا إلى قبول أحد الشرين، بذلوا كل جهد للإفلات من الآخر على الأقل. إلا أننى أخالفهم فى هذا، وأرى أنه ليس سوى علاج واحد ناجع للأضرار التى قد تنجم عن المساواة، وذلك العلاج هو الحرية السياسية.

---

(١) المقصود بالحرية السياسية هنا، إسهام المواطنين فى الشئون العامةواشتراكهم الفعلى بنصيب فيها.

الفصـــل الخـامس

استفادة الأمريكيين من الجمعيات العامة فى الحياة المدنية

لست أهدف هنا إلى التحدث عن الجماعات السياسية التى يقيمها الناس للدفاع عن أنفسهم ضد طغيان الأغلبية ، أو ضد اعتداء القوة الملكية عليهم ، فقد سبق أن تناولت هذا الموضوع بالبحث فى موضوع آخر . فإذا لم يتعلم المرء – كلما ازداد ضعفه من حيث هو فرد ، وعجز عن المحافظة على حرية مجهوده الفردى – أن يتعاون مع مواطنيه على الدفاع عنها ؛ كان لامندوحة للاستبداد من أن يزداد بازدياد المساواة .

ولكننى سأتحدث عن تلك الجمعيات التى تنشأ فى الحياة المدنية وليس لها أى غرض سياسى . أما الجماعات السياسية التى فى الولايات المتحدة فلا تعدو أن تكون ناحية واحدة من ذلك العدد الضخم من جملة الجماعات الكثيرة التى تنشأ فى تلك البلاد . الأمريكيون على اختلاف ظروفهم وميولهم وأعمارهم يسارعون إلى إنشاء الجمعيات . فليس عندهم شركات تجارية وصناعية يشاركون فيها جميعاً فحسب ، بل عندهم كذلك جمعيات شتى من آلاف الأنواع . فثم جمعيات دينية وأخلاقية ، جمعيات جادة وأخرى هازلة ، جمعيات عامة للجميع ، وأخرى خاصة كل الخصوص ؛ جمعيات ضخمة ، وأخرى صغيرة كل الصغر . فهم ينشئون الجماعات ، لإقامة الحفلات والملاهى ، ولإنشاء المعاهد الدينية ، والحانات والكنائس ، ولنشر الكتب ، وإرسال البعوث الدينية إلى أقاصى الأرض ؛ ويؤلفون جمعيات لبناء المستشفيات والسجون والمدارس . وإن كان المقصود نشر فكرة معينة بين الناس ، أو تكوين عاطفة معينة فيهم ، عن طريق تشجيع المثل الطيبة والقدوة الحسنة ، عمدوا فى كل ذلك إلى إنشاء الجمعيات . فحينما نجد الحكومة فى فرنسا على رأس مشروع جديد ، نجد فى إنجلترا رجلاً وجيهاً من ذوى المكانة ، أما فى أمريكا فلا شك فى أننا سنجد جمعية .

صادفت فى أمريكا أنواعاً كثيرة من الجمعيات قامت لمختلف الشئون والأغراض ، ولا أخفى عن القارىء أنه لم تكن لدىَّ أية فكرة عنها من قبل ، وكثيراً ما أعجبت بتلك المهارة العجيبة التى نجح بها أهالى الولايات المتحدة فى اقتراح غرض مشترك عام تتوجه إليه جهود عدد كبير من المواطنين ، وفى إقناعهم بأن يتطوعوا مختارين لمناصرته والعمل على إنجازه وإنجاحه .

هذا، وقد زرت بعد ذلك الوقت بلاد الإنجليز، وهى تلك البلاد التى اقتبس منها الأمريكيون بعض قوانينهم، والكثير من عاداتهم. ويخيل إلىَّ أن مبدأ تكوين الجمعيات لم يكن مرعياً فى إنجلترا بما يشبه تلك المهارة، ولا ذلك الاستمرار، كما هى الحال عند الأمريكيين، فكثيراً ما ينجز الإنجليز أعمالاً جسيمة فرادى، على حين ينشىء الأمريكيون الجمعيات لإنجاز حتى أصغر المشروعات وأتفهها. ولا يخفى أن الإنجليز يعدون الجماعات وسيلة ناجعة من وسائل إنجاز العمل. أما الأمريكيون فيخيل إلى أنهم يعدونها الوسيلة الواحدة عندهم لتحقيق كل غرض.

وهكذا نجد أعرق أمة ديمقراطية فى العالم، هى تلك التى أتقن فيها الناس أيما إتقان فى عصرنا الحاضر، فن التضافر على تحقيق أغراضهم المشتركة، وبلغوا بهذا الفن حد الكمال. وطبقوا هذا الفن الجديد فعلاً على عدد كبير من الأغراض. فهل كان هذا من قبيل المصادفة، أم ثمة صلة ضرورية فى الحقيقة بين مبدأ تكوين الجمعيات ومبدأ المساواة ؟

تضم الشعوب الأرستقراطية دائماً - بين جمهور كبير من الأفراد الذين لا يستطيعون بمفردهم أن يعملوا شيئاً ما - تضم عدداً من المواطنين الواسعى الثراء الذين يستطيع الواحد منهم أن ينهض وحده بمشروعات جسام. فليس المواطنون فيها بحاجة إلى التكتل ليعملوا؛ فهم مرتبطون بعضهم ببعض أوثق ارتباط. فكل مواطن واسع الثراء، قوى النفوذ يعد فى ذاته رئيساً لجماعة دائمة إلزامية، تتكون من جميع أتباعه، ومن الذين يعتمدون عليه، أو أولئك الذين يجبرهم قسراً على أن يذعنوا لتنفيذ مقاصده.

والأمر على العكس من ذلك فى البلاد الديمقراطية حيث نجد جميع المواطنين ضعافاً غير مستقلين لا يكادون يستطيعون أن يعملوا وحدهم شيئاً يذكر، ولا يستطيع واحد منهم أن يجبر إخوانه على أن يقدموا له أية معاونة؛ فكلهم ضعاف إذن لا حول لهم ولا قوة، إن لم يعملوا مختارين على أن يتعاونوا ويخلصوا فى تعاونهم. فإن لم يكن عند أهالى البلاد الديمقراطية حق الاجتماع لأغراض سياسية، ولا الميل إليه، تعرض استقلالهم لأخطار جسام. ولكنهم يستطيعون، مع ذلك، أن يحتفظوا بثرواتهم وعلومهم وثقافتهم زمناً طويلاً؛ أما إذا لم يكتسبوا أبداً عادة تكوين الجمعيات فى أمور الحياة العادية، تعرضت الحضارة نفسها للخطر. فالشعب الذى يفقد فيه الأفراد، القدرة على إنجاز الأعمال الكبيرة بمفردهم دون أن يحصلوا على وسيلة إنجازها بالجهود الجماعية، سرعان ما يتدهور ويعود إلى الهمجية.

ولكن الحالة الاجتماعية نفسها التى تجعل إنشاء الجمعيات ضرورة فى البلاد الديمقراطية، هى نفسها، لسوء الحظ، التى تجعل تكوين هذه الجمعيات أشق فى هذه الأمم منه فى غيرها. فعندما تتفق آراء عدد من الأعضاء فى بلد أرستقراطى على إنشاء جمعية، فليس أسهل عليهم من أن يجتمعوا لتكوينها. ولما كان كل واحد منهم سيجلب معه إلى هذه

الجمعية قوة كبيرة، جاز أن يكون عدد أعضائها صغيراً محدوداً. ولا يخفى أنه كلما كان أعضاء الجمعية محدودى العدد، سهل عليهم أن يتعاونوا ويتفاهموا ويضعوا لأنفسهم نظماً ولوائح ثابتة. ولكن أمثال هذه الفرص لا تتاح للناس فى البلاد الديمقراطية حيث يقتضى الأمر أن يكون عدد الأعضاء المجتمعين كبيراً دائماً، مما يحول دون توافر أية قوة تذكر لجمعيتهم.

هذا، ولا يخفى أن الكثير من المواطنين لا يجدون فى هذه الصعوبة شيئاً يدعو إلى القلق والحيرة، فهم يذهبون إلى أنه كلما كان المواطنون ضعفاء وغير أكفاء للنهوض بأعباء الأعمال، وجب علينا أن نجعل الحكومة قوية نشيطة حتى يتيسر للأمة فى جملتها أن تنهض بما لم يعد فى طاقة الأفراد أن يضطلعوا به. ويعتقد هؤلاء أن هذا يحل المشكل، ولكنهم واهمون فى رأيى.

قد تستطيع الحكومة أن تقوم بما تعمله بعض الشركات الأمريكية الكبرى، وقد حاولت ذلك فعلاً عدة ولايات فى الاتحاد الأمريكى. ولكن أية قوة سياسية تستطيع أن تقوم بتنفيذ تلك الكثرة الهائلة من المشروعات التى ينفذها المواطنون الأمريكيون كل يوم بمعاونة مبدأ الجماعات هذا؟ ليس عسيراً علينا أن نتنبأ باقتراب الوقت الذى تضعف فيه قدرة الإنسان شيئاً فشيئاً عن أن ينتج بجهده وحده أبسط ضروريات الحياة، فستزداد الأعباء الملقاة على الحكومة زيادة متصلة على الدوام. وأن مجهودات هذه الحكومة نفسها ستزيد تلك الأعباء أعباء أخرى كل يوم. فكلما حلت الحكومة محل الجمعيات والشركات، وازداد الأفراد ضعفاً من جراء فقدانهم الميل إلى التكتل والتعاون، ازدادت حاجتهم إلى الاستعانة بالحكومة: تلك هى أسباب ونتائج تخلق بعضها بعضاً باستمرار. فهل سينتهى الأمر ياترى بأن تضطلع «الإدارة العامة» نفسها بجميع الصناعات والمتاجر التى لا يستطيع المواطن الفرد أن يقوم بها وحده؟ وإن نحن فرضنا أن جاء الوقت الذى تتوزع فيه الأراضى الزراعية كلما تفتت قطعاً صغاراً لا نهاية لها نتيجة التطرف فى تقسيم الأراضى، حتى أصبح من الصعوبة بمكان زرعها إلا بوساطة جماعات من الفلاحين - فهل يجب على رئيس الحكومة إذن أن يترك دفة الدولة ليسير وراء المحراث بنفسه؟ إن إخلاص الشعب الديمقراطى وعقله ليكونان فى خطر، شأنهما فى ذلك شأن الأشغال التجارية والصناعية إذا ما قامت الحكومة وأحلت نفسها محل جميع الشركات والجمعيات الخاصة فى كل مكان.

لا تترق العواطف والقلوب والآراء، وتنمو وتتسع وتكبر، ولا يترق العقل البشرى ويتطور إلا من جراء تأثير الناس بعضهم فى بعض. وسبق أن بينت أن هذه المؤثرات تكاد تكون فى حكم المعدومة فى البلاد الديمقراطية، ومن ثم كان لابد من إدخالها فيها بطرق اصطناعية، وهذا ما تستطيع الجماعات وحدها أن تضطلع به وتؤديه.

فعندما يعتنق المواطنون فى بلد أرستقراطي فكرة جديدة، أو عندما تتكون فيهم عاطفة جديدة، عينوا لها بشكل ما مركزاً سامياً إلى جانب مراكزهم فى المستوى العالى الذى يحيون فيه هم أنفسهم - إن صح لنا هذا التعبير. وسرعان ما يصبح هذا الرأى، أو تصبح تلك العاطفة الظاهرة بارزة للجماهير، فيتيسر الإيحاء بها إلى عقولهم، أو نفثها فى قلوبهم. أما فى البلاد الديمقراطية، فليس ثمة شيء غير القوة الحاكمة وحدها يستطيع أن يكون فى مركز يخول له أن يسلك مثل هذا المسلك. ولا يشق علينا أن ندرك أن عمل هذه الحكومة سيكون دائماً ناقصاً وأحياناً كثيرة خطراً. فأهلية الحكومة للعمل على استبقاء الآراء والعواطف حية، وللعمل على تجديدها ونشرها وتداولها باستمرار بين شعب عظيم - هذه الأهلية ليست بأكثر من أهليتها لإدارة المشروعات الصناعية الإنتاجية فى البلاد. فما أن تحاول حكومة أن تتجاوز دائرة عملها السياسى، وتقحم نفسها فى مثل هذا العمل الجديد حتى تجد نفسها تمارس استبداداً غشوماً لايطاق، ولو فعلت ذلك على غير وعى منها، ذلك لأنه لايسع الحكومة إلا أن تفرض على الناس قواعد محددة دقيقة؛ فتفرض القواعد والآراء التى تأخذ هى بها، وتنفذها بكل صرامة وشدة، وليس من الهين أبداً التمييز بين ماتسديه من نصائح أو ماتصدره من أوامر. هذا، وإن الحالة لتكون أسوأ من ذلك، إن كانت (الحكومة) تعتقد حقاً أن من مصلحتها أن تحول دون انتشار أى آراء؛ فإنها ستقف عندئذ مكتوفة الأيدى جامدة لاتتحرك تنوء تحت عبء من الخمول فرضته على نفسها فأبهظها وأدها. فينبغى ألا تكون الحكومة إذن هى وحدها دون غيرها القوى النشيطة التى تعمل فى البلاد؛ فالجماعات فى الأمم الديمقراطية يجب أن تحل محل الأفراد الأقوياء الذين أودى بهم مبدأ المساواة فى الأحوال الاجتماعية.

وعندما تأخذ فئة من المواطنين فى الولايات المتحدة برأى ما، أو عندما تتكون فيهم عاطفة معينة ويريدون أن ينشروا هذا الرأى فى العالم، أو يدعوا إلى هذه العاطفة فيه كله، عمدوا إلى الاتصال بعضهم ببعض، وما أن يعرف كل منهم اتجاه الآخر، حتى يتحدوا ويؤلفوا جماعة منهم، وبذلك لايكونون بعد اتحادهم هذا أفراداً منعزلين متفرقين، بل يصبحون قوة، ندركها من بعيد، وتصبح أفعالهم مثلاً يحتذى، وتسترعى أقوالهم الانتباه والإنصات. فعندما سمعت لأول مرة فى الولايات المتحدة أن مائة ألف رجل تعهدوا علناً بأن يحرموا على أنفسهم تناول الخمر، خيل إلى أن الأمر أقرب إلى المزاح منه إلى الجد، ولم أدرك على الفور السبب الذى منع هؤلاء المواطنين الذين امتنعوا عن شرب الخمر من أن يجتزئوا بشرب الماء القراح وهم جلوس فى بيوتهم حول موائدهم. وبأخرة أدركت أن المائة ألف مواطن هؤلاء قد راعهم مارأوا من انتشار السكر حولهم، فعقدوا عزمهم على مناصرة تحريم الخمر[1]، وسلكوا الطريق نفسه الذى كان يسلكه رجل من أبناء الطبقة

(١) صدر قانون بتحريم شرب الخمر فى أمريكا سنة ١٩١٩ وظل هذا التحريم قائماً حتى ١٩٣٣.

العالية اختار أن يتخذ له زيًّا بسيطاً كل البساطة حتى يوحى إلى أفراد الطبقات الدنيا بضرورة احتقار الترف والكماليات .

ولو أن هؤلاء المائة ألف أمريكى كانوا يعيشون فى فرنسا لطالب كل واحد منهم الحكومة بأن تراقب المحال العامة فى أنحاء البلاد كافة . فليس شيء جدير فى نظرى بأن يسترعى اهتمامنا مثل الجمعيات الأدبية والأخلاقية فى أمريكا . ولا شك فى أن ما فيها من الجمعيات السياسية والصناعية يستلفت النظر بقوة ، أما الجمعيات الأخرى فقد تند عن الملاحظة ؛ وإن نحن وقفنا عليها لم نفهمها حق الفهم ، لأنا لم نر من قبل شيئاً يشبهها . ومن ذلك فعلينا أن نسلم بأنها لازمة للشعب الأمريكى لزوم الجماعات السياسية والصناعية - ولعلها ألزم له منها ؛ فقد تجد فى البلاد الديمقراطية أن علم الاجتماع يقوم على رأس العلوم كلها ، فتقدمها يتوقف على تقدمه .

ومن بين القوانين التى تحكم المجتمعات البشرية ، قانون يبدو أدق من سائرها وأوضح ، فكى يظل الناس متحضرين ، أو إن هم أرادوا أن يكونوا كذلك ، يجب أن ينمو فيهم فن تكوين الجمعيات ويترقى هذا حتى يكتمل بنفس النسبة التى يزداد بها مبدأ المساواة فى الأحوال الاجتماعية ويترقى بينهم .

الفصـــل الســادس

صلة الجمعيات العامة بالصحف

إذا لم يعد الناس مرتبطين بعضهم ببعض بصلات وثيقة دائمة، تعذر إيجاد أى تعاون بين عدد كبير منهم، اللهم إلا إذا استطعنا أن نقنع كل امرىء ممن لابد لهم من هذا التعاون، بأن مصالحه الخاصة تضطره إلى أن يتحد مع غيره، بإرادته واختياره، وبضرورة أن يضم جهوده إلى جهود الآخرين كلهم. وهذا أمر لايتم عادة، وعلى صورة ملائمة مريحة إلا بوساطة صحيفة يومية. فليس شىء غير الصحف يستطيع أن يلقى بفكرة معينة فى عقول آلاف من الناس فى وقت واحد. فالصحيفة مستشار ناصح لايحتاج أحد أن يحج إليه ليستمد الرأى منه، بل يأتيك من تلقاء نفسه. ويتحدث كل يوم فى إيجاز عن المصلحة العامة، دون أن يعطلك عن مواصلة السير فى شئونك الخاصة.

ومن ثم كانت الحاجة إلى الصحف تزداد بازدياد المساواة بين الناس وبازدياد الخوف من «الفردية». فمن يذهب إلى أن عمل الصحف لايعدو حماية الحرية، يقلل من شأنها؛ فالصحف تعمل على صيانة الحضارة. ولست أنكر أنها كثيراً ما تدفع بالمواطنين فى البلاد الديمقراطية إلى أن يتفقوا ويشتركوا فى مشروعات خطيرة لم تنل حقها من الدرس والتخطيط، ولكن إذا لم يكن ثم صحف انعدم كل نشاط جماعى؛ فما ينجم عن الصحف من شر أقل بكثير مما تصلحه هى من شرور.

وليس عمل الصحيفة مقصوراً على الإيحاء بغرض معين إلى عدد كبير من الناس، بل إنها تزودهم بالوسائل اللازمة للتعاون على إنجاز المشروعات التى يكون قد ارتآها كل منهم على حدة. فكبار المواطنين الذين يعيشون فى بلاد أرستقراطية يعرف كل منهم الآخر من بعيد، فإن شاءوا أن يوحدوا قواهم، اتجه كل منهم إلى الآخر، وخلفه جمهور كبير من أتباعه. والأمر على العكس من ذلك فى البلاد الديمقراطية؛ فكثيراً ما يحدث فيها أن عدداً كبيراً من الناس الذين يرغبون فى الاشتراك معاً فى عمل ما، أو كانوا محتاجين إليه لايستطيعون تحقيق ذلك. فهم، لصغر شأنهم، وضياعهم وسط الجماهير، لايرون بعضهم بعضاً، ولا يدرى الواحد منهم أين يجد الآخر. وهنا يبدأ دور الصحيفة، فتعرض عليهم جميعاً الفكرة أو العاطفة التى طرأت على بال كل منهم فى وقت واحد، ولكل منهم

على حدة؛ فيتجهون جميعاً من فورهم نحو هذا النبراس، وينتهى الأمر بتلك العقول التى ظلت أمداً طويلاً حائرة فى الظلام يبحث كل منها عن الآخر، أن تلتقى. فالصحيفة هى التى تجمع شملهم، وتظل ضرورية لهم كى يظلوا متحدين.

وكى يكون لأية جمعية منشأة فى شعب ديمقراطى قوة ما، ينبغى أن يكون أعضاؤها كثيرين، وبذلك يكونون مبعثرين فى أرجاء عدة، كل منهم مستقر فى البقعة التى يعيش فيها، لا يستطيع أن يبرحها بسبب ضآلة دخله، وكثرة الجهود الصغيرة التى لابد له من أن يبذلها للحصول على هذا الدخل القليل. فلابد إذن من وجود وسيلة تمكن لكل منهم أن يتصل بالآخر من غير أن يراه، وأن يعملوا جميعاً متفقين فى اتجاه واحد دون أن يلتقوا أو يجتمعوا بعضهم ببعض. فليس ثمة جماعة ديمقراطية إذن تستطيع أن تستغنى عن الصحف.

مما تقدم، يتبين لنا أن بين الجمعيات العامة والصحف علاقة ضرورية. فالصحف تخلق الجماعات، والجماعات تخلق الصحف. وإن صح ما نقوله من أن الجماعات هذه تزداد عدداً كلما تساوت أحوال الناس الاجتماعية، صح كذلك القول بأن عدد الصحف سيزداد بازدياد الجماعات. فلا غرو أن وجدنا فى أمريكا أكبر عدد من الصحف، وأكبر عدد من الجمعيات فى وقت واحد.

وتؤدى بنا هذه الصلة التى بين عدد الصحف وعدد الجمعيات، إلى استكشاف صلة أخرى بين حالة الصحافة الدورية وبين شكل الإدارة الدائم فى البلاد؛ فهى تدلنا على أن عدد الصحف يزيد أو يقل فى الشعب الديمقراطى بحسب مدى مركزية الإدارة فيه. إذ لا يمكن أن يعهد فى الأمم الديمقراطية بممارسة السلطات المحلية إلى كبار المواطنين فى القرية أو فى المركز، كما هى الحال فى البلاد الأرستقراطية. فيجب أن تلغى إذن هذه السلطات، أو يعهد بها إلى عدد كبير جداً من الناس؛ وعندئذ يكوّن هؤلاء جمعية قانونية دائمة لإدارة جزء من البلاد، وهم بحاجة، لا شك، إلى جريدة تحمل إليهم كل يوم، وسط مشكلاتهم الصغيرة طائفة من الأنباء عن حالتهم العامة. وكلما ازداد عدد السلطات المحلية، ازداد عدد الأشخاص الذين يعهد إليهم القانون بهذه السلطات. وإذ كان الناس يشعرون بهذه الحاجة فى كل لحظة، ازداد عدد الصحف واتسع انتشارها.

ولتقسيم السلطة الإدارية تقسيماً كبيراً غير عادى، صلة كبيرة بتزايد عدد الصحف الهائل فى أمريكا، أكثر مما للحرية السياسية الكبرى، ومن استقلال الصحافة المطلق فى البلاد. فإن كان ما لجميع السكان فى الولايات المتحدة من حق الانتخاب، مقصوراً على انتخاب ممثليهم فى الكونجرس، لاحتاجوا إلى عدد قليل كل القلة من الجرائد، لأنهم لا يكونون بحاجة إلى أن يعملوا معاً إلا فى الظروف البالغة الأهمية، وهى ظروف نادرة كما لا يخفى. ولكن قامت فى المجتمع القومى الكبير مجتمعات فى كل مقاطعة ومدينة، وفى كل قرية من القرى، مجتمعات صغيرة يقرها القانون، وترمى كلها إلى الاضطلاع بالإدارة

المحلية؛ وبذلك صارت قوانين البلاد تحمل كل مواطن أمريكى على أن يتعاون فى كل يوم من أيام حياته مع نفر من أمثاله المواطنين ويشترك معهم فى تحقيق غرض من الأغراض؛ ولايخفى أن كل واحد منهم بحاجة إلى جريدة تحيطه علماً بما يعمله الآخرون .

وفى رأيى أن عدد الصحف عند الشعب الديمقراطى الذى ليس له مجلس قومى يمثله، ولكن له عدد كبير من السلطات المحلية، سيكون فى النهاية أكثر مما عند أمة تحكمها إدارة مركزية، ومجلس تشريعى منتخب. وخير تفسير أراه لانتشار الصحف فى الولايات المتحدة ذلك الانتشار الكبير، هو وجود تلك الجرائد اليومية الواسعة، مع وجود الحريات المحلية على اختلاف أنواعها .

شاع فى كل من فرنسا وإنجلترا رأى يقول بأن انتشار الصحف يزداد زيادة لاحد لها إذا ما أزيلت الضرائب المفروضة عليها؛ وهو رأى فيه إسراف كبير فى تقدير نتائج هذا الإصلاح، فمقدار ما يوزع من الصحف يزداد، لاعلى أساس رخص السعر الذى تباع به، بل على أساس مدى الحاجة التى يشعر بها عدد كبير من الناس للاتصال بعضهم ببعض .

هذا، وإنى لأعزو تزايد تأثير الصحافة اليومية إلى أسباب أعم كثيراً مما يذكره الناس عادة لتفسير هذا التأثير. فلا يمكن أن تظل الصحيفة قائمة إلا إذا كانت تعبر بما تنشره عن مبادىء أو عواطف يشترك فى الأخذ بها عدد كبير من الناس. فالصحيفة تمثل دائماً جماعة إذن، أعضاؤها القراء الذين يداومون على مطالعتها. وقد تكون هذه «الجماعة» محدودة أو محصورة، أو كثيرة الأعضاء، ولكن بقاء الصحيفة حية لاتموت هو وحده الدليل على أن بذور هذه الجماعة على الأقل موجودة فى أذهان قرائها .

ويفضى بنا هذا إلى فكرة أخيرة أختتم بها هذا الفصل. فكلما تساوت أحوال الناس الاجتماعية وازداد كل فرد منهم ضعفاً، سهل استسلامهم لتيار الجماعة، وشق عليهم أن يظلوا مستمسكين برأى تأباه هذه الجماعة. فالصحيفة تمثل «جماعة»، بل الأحرى بنا أن نقول أنها تخاطب كل قارىء من قرائها باسم الجماعة كلها، وأنها تؤثر فيهم بحسب مدى ضعف كل فرد منهم؛ ومن ثم صارت قوة الصحافة تزداد كلماً تساوت أحوال الناس الاجتماعية .

الفصـــل السابـع

صلة الجمعيات المدنية بالجمعيات السياسية

ليس فى العالم كله غير دولة واحدة يستخدم المواطنون فيها ما لهم من حرية مطلقة فى التجمع لأغراض السياسة ؛ وهذه الدولة هى الوحيدة فى العالم التى يمارس فيها المواطنون باستمرار فى الحياة المدنية حقهم فى حرية الاجتماع ، فاستطاعوا بذلك أن يحصلوا على جميع المزايا التى يمكن أن تقدمها لهم الحضارة عن طريق استعمالهم هذا الحق .

فمن النادر أن تقوم جمعيات مدنية فى بلاد يحظر فيها الجمعيات السياسية ، وليس من المحتمل أن يجىء ذلك نتيجة المصادفة ، بل ينبغى لنا أن نستنتج منه وجود صلة طبيعية ، وربما كانت ضرورية كذلك ، بين هذين النوعين من الجمعيات .

فقد يحدث أن يكون لبعض الناس مصلحة مشتركة فى أمر ما ، وقد يكون ذلك الأمر مشروعاً تجارياً ، أو مغامرة فى ميدان الصناعة ؛ فيجتمع هؤلاء الناس بعضهم ببعض ويتحدثون ، ثم لا يلبثون أن يألفوا مبدأ تكوين الجمعيات هذا شيئاً فشيئاً . وكلما ازداد عدد المشروعات الصغار ازداد الناس اكتساباً للقدرة على التعاون والاضطلاع معاً بالمشروعات الكبرى ، حتى ولو جاء ذلك الاكتساب على غير تفطن منهم .

وهكذا تيسر « الجماعات » المدنية السبيل إلى قيام « الجماعات » السياسية ؛ ومن جهة أخرى تقوى هذه الجماعات السياسية الجماعات التى ترمى إلى أغراض مدنية وترقيها بشكل غريب ، فيخيل لكل إنسان إذن أن فى استطاعته ، إذا اقتضى الأمر ، أن يسد بنفسه كل ما يحتاج إليه فى الحياة المدنية ؛ أما فى الحياة السياسية فليس يخطر شىء من هذا ببال أحد . فكل الشعب لديه خبرة بالحياة العامة لابد أن تمر بخواطر أفراده فكرة تكوين الجمعيات والرغبة فى التكتل . وأيا كان ذلك الفتور الطبيعى الذى قد يعوق الناس عن أن يتعاونوا ويعملوا معاً متضافرين ، فهم على استعداد دائماً لأن يجتمعوا إذا كان اجتماعهم هذا مما تقتضيه مصلحة حزب من الأحزاب . وهكذا تعمل الحياة السياسية على استمالة الناس إلى تكوين « الجمعيات » وإلى ممارستها وتعميمها ، وترغبهم فى الاتحاد ، وتعلمهم طرق الاجتماع والتكتل ؛ ولولا ذلك لظلوا يعيشون فى عزلة منفصلين بعضهم عن بعض .

فالسياسة لا تؤدى إلى جماعات كثيرة فحسب ، بل تؤدى كذلك إلى قيام جماعات

ضخام كل الضخامة. وقلما يحدث فى الحياة المدنية أن تدفع مصلحة واحدة عدداً كبيراً من الناس لأن يتضافروا ويعملوا معاً، لأن إيجاد مثل هذه المصلحة يستلزم مهارة بالغة. أما فى ميدان السياسة فالفرص كبيرة وتسنح كل يوم. هذا ولا تتجلى قيمة مبدأ حق الاجتماع إلا فى الجماعات الكبيرة وحدها دون سواها. إذ لا يستطيع المواطنون، من حيث هم أفراد ضعاف أن يتصوروا سلفاً وبشكل واضح، تلك القوة التى يكتسبونها من جراء اتحادهم بعضهم مع بعض؛ بل إن هذه القوة يجب أن تكشف لهم وتوضح حتى يدركوها حق الإدراك. ومن ثم كانت تعبئة جمهور من الناس لغرض عام، أسهل فى الغالب من جمع بضعة أشخاص لهذا الغرض نفسه. فألف مواطن لا يستطيعون أن يدركوا المصلحة التى تعود عليهم من الاجتماع بعضهم ببعض. على حين يدركها عشرات الآلاف منهم تمام الإدراك. ولا يخفى أن الناس لا يجتمعون بعضهم ببعض فى الأمور السياسية إلا من أجل القيام بمشروعات ضخمة. فهم باستخدامهم مبدأ حق الاجتماع فى الشئون العامة يتعلمون بأسلوب عملى، أن مصلحتهم أن يتعاونوا كذلك فى الأمور الأقل شأناً. فالجمعيات السياسية تجتذب عدداً من الأفراد فى وقت واحد من دوائرهم الخاصة بهم؛ ومهما فصلتهم فروق السن والعقل والثروة بعضهم عن بعض، فإنها تغريهم بالاتصال وتيسره لهم، حتى إذا ما اجتمعوا مرة اجتمعوا بعدها مرات.

ويستطيع الناس أن يشاركوا فى عدة شركات مدنية، دون أن يخاطروا بشىء مما يملكون؛ ويتجلى ذلك واضحاً فى الشركات الصناعية والتجارية. فعندما تكون خبرة الناس بشئون الجماعات قليلة ويجهلون قواعدها العامة، يخشون أن يكلفهم الحصول على الخبرة المنشودة ألماناً عالية، عندما يجتمعون بهذه الطريقة لأول مرة، فلا غرو إن آثروا أن يحرموا أنفسهم أداة فعالة من أدوات النجاح، على أن يغامروا بالتعرض لما يترتب على استخدام هذه الأداة من أخطار. ومع ذلك فإن خوفهم هذا ليقل عندما يفكرون فى الانضمام إلى جماعات سياسية، لأنه فى نظرهم أقل خطراً حيث لا يغامرون بشىء من المال. هذا، وأنهم لا يستطيعون أن يلتحقوا بهذه «الجماعات» زمناً من غير أن يتفقوا على طريقة المحافظة على النظام قائماً بين جمهور كبير من الناس، وعلى الوسائل التى تمكن لهم من التقدم فى انسجام وفى نظام، للوصول إلى تحقيق هذا الغرض نفسه. وبذلك يتعلمون أن يخضعوا إرادتهم لإرادة الجميع؛ وأن يجعلوا ما يبذلونه من جهود خاضعة للمصلحة العامة. وهذه كلها أمور لا تقل ضرورة الإلمام بها فى الجمعيات السياسية عنها فى الجمعيات المدنية؛ ومن ثم صح لنا اعتبار الجمعيات السياسية أشبه بمدارس مجانية ضخمة يلتحق بها أعضاء الشعب كى يدرسوا نظرية إدارة الجماعات.

وحتى إذا كانت الجماعات السياسية لا تساعد مباشرة على تقدم الجماعات المدنية فالقضاء على الأولى يضعف الثانية. فإذا ما عجز المواطنون عن أن يجتمعوا علناً إلا فى حالات معينة ولأغراض معينة، عدوا مثل هذه الاجتماعات غريبة نادرة الحدوث،

فلا يعودون يحفلون بها ولا حتى يفكرون فيها . أما إن رخص لهم أن يجتمعوا بحرية لأى غرض يشاءون، نظروا إلى الاجتماع العام على أنه شيء عام، وأنه بشكل ما، الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها الناس لتحقيق ما ينشدون تحقيقه من مختلف الأغراض. وسرعان ما توقظ كل حاجة جديدة هذه الفكرة، وعندئذ يصبح فن الاجتماع، كما ذكرت من قبل، الفن الأساسى، مصدر كل عمل، فيدرسه الجميع ويطبقونه .

أما إذا حرمت على الناس بعض أنواع الجمعيات، ورخص لهم بأخرى، تعذر عليهم أن يفرقوا سلفاً بين الأولى والثانية، وفى حالة الشك هذه يمتنعون عن الالتحاق بأيهما امتناعاً تاماً ، ويتكون شبه رأى عام يجعل أى جمعية، مهما كان نوعها، عملاً جريئاً، بل تكاد تعد منشأة غير مشروعة .

فمن الخطأ إذن أن نظن أن روح التجمع إذا ما قمعت فى ناحية واحدة معينة ستظل مع ذلك نشيطة النشاط نفسه فى سائر النواحى الأخرى، وأنه إذا ما سمح للناس بأن يشتركوا معاً فى القيام بطائفة من المشروعات، حفزهم ذلك على أن يتحمسوا لكل ضروب التجمع وأقبلوا عليها كل الإقبال. فإذا سمح للمواطنين أن يتجمعوا لأغراض شتى واعتادوا هذا، فسيسارعون إلى التجمع من أجل الأمور الصغيرة، مسارعتهم إلى التجمع من أجل الشئون الكبرى العامة. أما إذا لم يسمح لهم بالتجمع إلا لأغراض صغيرة فحسب، فإنهم لا يميلون إلى مثل هذه التجمعات، ولا تكون لهم القدرة على عقدها. فمن العبث أن ندعهم أحراراً طلقاء ليستمروا فى أعمالهم وفى مشروعاتهم التجارية والصناعية الخاصة على أساس جماعى، إذ يخشى من أنهم لا يحفلون بأن يستفيدوا من الحقوق التى منحوها. فبعد أن تكون قد استنفدت قوتك فى جهود لا طائل تحتها، لمنع التجمعات المحظورة، تستولى عليك الدهشة من عجزك عن إقناع الناس بتأليف تلك الجماعات المسموح بها التى تعمل أنت على تشجيعها .

لست أقول بأن الجمعيات المدنية ستختفى من كل بلد حرم عليه عقد الاجتماعات السياسية. فالناس لا يمكنهم أن يعيشوا مجتمعين من غير تعاون على الاضطلاع بمشروعات عامة. ولكنى أقول أن الجمعيات المدنية ستكون فى مثل هذا البلد قليلة العدد دائماً، ضعيفة التخطيط، سيئة الإدارة، وأن الناس سيمتنعون عن أن يضعوا خططاً واسعة، أو أنهم سيفشلون فيها إن هم حاولوا أن ينفذوها .

وهذا بالطبع يجعلنى أرى أن حرية التجمع لأغراض سياسية لا خطر منها على الهدوء العام، كما توهم الناس. وأنها بعد أن تكون قد هزت المجتمع وقتاً ما، قد تؤدى فى النهاية إلى تقويته وتوطيد دعائمه، هذا، ويصح لنا أن نعد الجمعيات السياسية فى البلاد الديمقراطية الأشخاص المعنوية الوحيدة القوية التى تطمح إلى تولى مناصب الحكم فى الدولة، (ذلك إن جاز لنا هذا التعبير). ومن ثم كانت الحكومات فى عصرنا تنظر إلى مثل

هذه الجمعيات مثلما كان الملوك فى العصور الوسطى ينظرون إلى كبار أتباعهم الإقطاعيين. فقد كانوا يضمرون لهم شيئاً من الحقد والكراهية الفطرية، ويكافحونهم فى كل فرصة تتاح لهم، ولكنهم كانوا، على العكس من ذلك، يكنون الخير وحسن النية للجمعيات المدنية؛ فهم لا يلبثون أن يستكشفوا أن هذه الجمعيات بدلاً من أن توجه عقول الناس إلى الشئون العامة تبعدهم عن التفكير فيها، وأنها كلما ازدادت فى أن تشغلهم بأمور لا تتحقق إلا بتوافر الهدوء والسلام فى البلاد، عاقتهم عن القيام بأية ثورة أو انقلاب. ولكن فات هذه الحكومات أن تدرك أن الجمعيات السياسية تعاون كل المعاونة على الاستكثار من الجمعيات ذات الصبغة المدنية؛ وتعمل على تيسير قيامها، وأنها بتجنبها داء خطيراً قد حرمت نفسها علاجاً ناجعاً.

عندما نشاهد الأمريكيين ينشئون فى حرية وباستمرار جمعيات شتى تهدف إلى ترقية مبدأ سياسى، أو إلى رفع شخص معين إلى رتبة السياسة فى الشئون العامة، أو إلى انتزاع السلطة من آخر، يشق علينا أن ندرك أن أناساً مستقلين هذا الاستقلال لا يسيئون استخدام ما لديهم من الحرية باستمرار. أما إذا نظرنا إلى الشركات التجارية التى لا تحصى فى الولايات المتحدة، وأدركنا أن الأمريكيين مشغولون باستمرار بتنفيذ خطة هامة وشاقة، يمكن أن تعطل ويشيع فيها الاضطراب لحدوث أقل ثورة، أدركنا على الفور السبب فى أن شعباً منهمكاً فى أعماله وأشغاله هذا الانهماك، لا يغريه شىء بالعمل على إتعاب الدولة، أو على تعكير ذلك الأمن العام، الذى يفيد منه جميع أفراده الشىء الكبير.

فهل يكفى أن نلاحظ هذه الأشياء فرادى، كل شىء منها على حدة، أم يقتضينا الواجب أن نلحظ الصلة الخفية التى تربطها كلها بعضها ببعض؟ إن الأمريكيين على اختلاف أحوالهم، وعقولهم، وأعمارهم ليزدادون كل يوم فى تجمعاتهم السياسية ميلاً عاماً إلى تكوين الجمعيات والاستفادة منها. فهم يجتمعون معاً بأعداد كبيرة فيتحدثون، ويصغى كل منهم إلى الآخر، ويشجعون بعضهم البعض على القيام بمشروعات شتى مختلفة الأنواع، ثم هم ينقلون فيما بعد إلى الحياة المدنية الأفكار التى اكتسبوها بهذه الطريقة، ويستخدمونها فى شتى النواحى والأغراض. فمن جراء التمتع بحرية خطرة، عرف الأمريكيون فن التقليل من أخطار هذه الحرية وجعلها أقل ضرراً.

فلو أننا اخترنا لحظة معينة فى حياة أمة من الأمم، لكان من اليسير علينا أن نبرهن أن الجمعيات السياسية تعكر صفو الدولة، وتشل الإنتاج الصناعى فيها، أما إذا أخذنا حياة الشعب كلها جملة، فقد يكون من السهل أن نبرهن على أن الجمعيات السياسية تعاون على ازدهار المجتمع كله وعلى إقرار الهدوء بين مواطنيه.

سبق أن ذكرت فى الجزء الأول من هذا الكتاب: «يجب ألا نخلط أبداً بين الحرية المطلقة فى عقد الجمعيات السياسية وبين حرية الصحافة؛ فإحداهما أقل ضرورة من الأخرى وأشد منها خطراً فى الوقت نفسه. وقد يحدث أن تحصرها أمة ما فى نطاق معين،

محدود من غير أن تفقد شيئاً من سيادتها على نفسها ، بل إنها قد تضطر أحياناً إلى أن تفعل ذلك لتحافظ على سيادتها قائمة » ثم بعد ذلك بقليل ، قلت « لا ينكر أحد أن الحرية المطلقة للجمعيات السياسية تعد من بين سائر الحريات ، الحرية التى يستغرق فيها الشعب أطول مدة ليتعلم طرق ممارستها ؛ فإن هى لم تلق به بين براثن الفوضى فعلاً زادت من احتمال وقوعه فى هذه الكارثة لأنها تظل تهدده باستمرار فى كل مكان » وعلى ذلك فليس من رأيى أن الأمة تكون حرة دائماً فى أن تخول لمواطنيها الحق المطلق فى تكوين الجمعيات لأغراض سياسية ؛ وإنى ليساورنى الشك فى إن كان من الصواب والحكمة ، فى أى عصر وفى أى بلد ، ألا نضع حدوداً تقيد حرية التجمع » .

يقولون إن الأمة لا تستطيع أن تحافظ على السلام فى البلاد ، وتحمل الناس على مراعاة القوانين واحترامها . ولا هى تستطيع أن تقيم حكومة ثابتة ، إن لم تحصر حق التجمع فى حدود ضيقة . إن لهذه النعم قيمتها الكبرى لا شك ؛ وأستطيع أن أتصور أن الأمة لترضى بأن تفرض على نفسها قيوداً قاسية ، وإن كانت مؤقتة ، كى تحصل على هذه النعم ، وتحافظ عليها ؛ ومع ذلك فمن الخير لها أن تعرف على وجه التحديد الثمن الذى ستدفعه نظيرها . قد أفهم أنه من الخير أن تبتر ساعد رجل ، إن كان فى هذا البتر إنقاذ حياته ؛ ولكنه من السخرية أن يؤكد لى أحد بأن هذا الرجل سيظل مع ذلك ماهراً ، كما كان قبل أن يفقد ساعده .

الفصـــل الثـامن

الأمريكيون يقاومون الفردية بمبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح

عندما كانت هذه الدنيا فى أيدى قلة من الأفراد من ذوى الثراء الواسع والجاه العريض، كان هؤلاء الأشخاص الأغنياء الأقوياء متعلقين بفكرة سامية عن واجبات الإنسان، وكان يسرهم أن يقولوا عنه إنه لخليق به أن ينكر ذاته، وأن يعمل الخير دون أن يطمع فى ثواب، كما هو شأن الله. تلك كانت الآراء الأساسية الذائعة بين الناس فى ذاك الزمن عن الأمور الأخلاقية[1].

وإنى ليساورنى الشك فى إن كان الناس فى العصر الوسيط أكثر استمساكاً بالفضائل منهم فى غيره من العصور؛ ولكنهم كانوا يكثرون من الكلام عن جمال الفضيلة؛ أما فوائدها فلم يكونوا يتحدثون عنها إلا فى الخفاء. ولما كان الخيال لا يرتفع فى تحليقاته حتى يبلغ مدى هذه الأجواز السامية، وكانت أفكار كل امرىء متركزة فى نفسه وحده، فزع الأخلاقيون من فكرة التضحية بالذات هذه، ولم يعودوا يجرءون على طرحها على العقل البشرى واكتفوا بالبحث عما إن كانت مصلحة كل فرد من أفراد المجتمع الشخصية، فى أن يعمل لما فيه خير الجميع؛ حتى إذا ما عثروا بنقطة تلتقى فيها المصلحة الشخصية بمصلحة الجماعة، وتندمج فيها، تلهفوا على إبرازها جلية للناس. وكثرت الملاحظات التى من هذا القبيل شيئاً فشيئاً، حتى أصبح ما كان مجرد ملاحظة مفردة، مذهباً عاماً، وصار الناس يعتقدون أن الإنسان إنما يحترم نفسه، بينما يحترم بنى جنسه، وأن مصلحته الشخصية فى أن يعمل الخير للناس أجمعين[2].

هذا، وقد سبق أن أوضحت فى مواضع عدة من هذا الكتاب الوسائل التى تمكن بها الأمريكيون فى معظم الأحوال من أن يجمعوا بين رفاهيتهم الشخصية ورفاهية سائر

---

(١) مَنْ هؤلاء الذين يشير إليهم المؤلف يا ترى؟ لعله يقصد جماعة الرواقيين من الفلاسفة أمثال الإمبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس (١٢١ - ١٨٠ ق.م.)

(٢) لا شك فى أن المؤلف قد اطلع على كتابات سان بيير l'abbé de Saint Piérre رائد من نادوا بالسلام الدائم فى العالم، والذى كان يضع فى رأس كل خطاب من خطاباته « الجنة لمن يفعل الخير ».

إخوانهم المواطنين ؛ آما ما آهدف إليه هنا فشرح تلك القاعدة العامة التى يسرت لهم أن يتوصلوا إلى ذلك . إنا لانكاد نجد أحداً فى الولايات المتحدة يتحدث عن جمال الفضيلة ، ولكن الأمريكيين يعتقدون مع ذلك أن الفضيلة شىء نافع ، ويدللون على نفعها كل يوم ؛ فالأخلاقيون عندهم لايعترفون بأنه يجب على الناس أن يضحوا بأنفسهم فى سبيل بنى جنسهم لأنه من النبل أن يقوم الإنسان بمثل هذه التضحية ، ولكنهم يؤكدون لنا فى جرأة أن مثل هذه التضحيات لازمة لمن يفرضونها على أنفسهم لزومها لمن تبذل فى سبيلهم .

فقد أدركوا أن فى بلادهم وعصرهم قوة لا قبل لأحد بمقاومتها جعلت كلاً منهم يفكر فى نفسه وفى مصلحته أولاً . وإن فقدوا كل أمل فى وقف هذه القوة عن عملها هذا نقلوا تفكيرهم شطر توجيهها . فهم لاينكرون أن لكل إنسان الحق فى أن يعنى بمصالحه الشخصية ، ولكنهم يحاولون أن يبرهنوا لنا أن مصلحة كل إنسان تقتضيه أن يتحلى بالفضيلة فيكون أميناً مخلصاً . هذا ، ولست أنوى الدخول هنا فى الأسباب التى يدلون بها لأن ذلك يبعدنى عن موضوعى ، وحسبى أن أقول إنهم أقنعوا مواطنيهم بذلك .

قال مونتانى Montaigne[1] من زمن طويل « إن لم أسلك الطريق المستقيم من أجل استقامته فقد وجب على أن أسلكه لأن الخبرة علمتنى انه سيكون فى النهاية خير الطرق وأفيدها » . فليس مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح بالأمر الجديد ، ولكنه أصبح عند الأمريكيين فى عصرنا أمراً مقبولاً يرضونه أجمعين ، فذاع بينهم كل الذيوع . فلا غرو أن وجدناه بارزاً فى كل ما يصدر عنهم من أفعال ، وصرنا نلحظه فى كل ما يتلفظون به من أقوال . وكثيراً ما يؤكده الفقير بقدر ما يؤكده الغنى . أما فى أوربا فمبدأ المصلحة الشخصية هذا أغلظ وأخشن مما هو فى أمريكا ، ولكنه فى الوقت نفسه أقل انتشاراً ، والناس فيها أقل صراحة فى اعترافهم به . وما زال الناس فى فرنسا يتظاهرون باستمرار بأنهم ينكرون ذواتهم إنكاراً عظيماً حتى لم يعودوا يشعرون به فى الواقع .

وعلى النقيض من ذلك نجد الأمريكيين مغرمين بتأويل معظم أفعالهم على أساس من مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح ، فيوضحون لنا فى سرور واغتباط أن نظرتهم إلى مصلحتهم الشخصية هذه نظرة مستنيرة تدفعهم باستمرار إلى التعاون بعضهم مع بعض ، كما تدعوهم إلى التضحية راضين مختارين بجزء من وقتهم ومن أموالهم فى سبيل مصلحة الدولة . إنهم من هذه الوجهة يظلمون أنفسهم على ما أرى . فالناس فى الولايات المتحدة شأنهم شأن غيرهم فى البلاد الأخرى يبدو أنهم يستسلمون للدوافع الفطرية التلقائية ، ولكن الأمريكيين يندر أن يسلموا بأنهم يخضعون للعواطف التى من هذا القبيل ، بل يحرصون على أن يكرموا فلسفتهم هذه أكثر ما يكرمون أنفسهم .

---

(١) مونتانى : ميشيل إكويم الكونت دو مونتانى (١٥٣٣ - ١٥٩٢) أديب فرنسى عاش أكثر حياته فى مدينة بوردو ؛ وعنى بكتابة المقالات ، واهتم فى كثير منها بالنواحى الأخلاقية . وتقوم شهرته على مجموعة مقالاته هذه التى عالج فيها موضوعات شتى .

وربما كان الأحرى بى أن أقف هنا، ولا أبدى رأيى فيما قد ذكرت توا، فأحكم له أو عليه؛ لأن صعوبة الموضوع الكبيرة تنهض عذراً لى، ومع ذلك فلن أستغل هذه الصعوبة، بل أوثر أن أمكن القارىء من أن يدرك غرضى الذى أرمى إليه، إدراكاً واضحاً، ومن أن يرفض مسايرتى فى رأيى هذا، على أن أتركه معلقاً.

فمبدأ المصلحة الشخصية هذا، بصورته الصحيحة، ليس بالمبدأ السامى ولكنه مبدأ واضح وأكيد؛ فهو لا يهدف إلى أغراض عظيمة، ولكنه يبلغ فى سهولة كل ما يهدف إليه؛ وفهم هذا المبدأ ميسور؛ فهو فى متناول إدراك الناس كلهم على اختلاف قدراتهم؛ فلا غرو أن استطاع كل امرىء أن يأخذ به ويحافظ عليه فى غير مشقة. فمن أجل اتفاقه الرائع مع الضعف البشرى استطاع أن يسيطر على الناس سيطرة كبيرة فى يسر وسهولة، وليست سيطرته هذه بالموافقة العابرة، مادام يكف مصلحة شخصية بأخرى مثلها، ويستخدم فى توجيهه لشهوات الناس نفس الحوافز التى تستثيرها وتحركها.

لا يؤدى هذا المبدأ إلى القيام بتضحيات كبيرة، ولكنه يوحى ببذل تضحيات يومية صغيرة؛ فهو غير كاف وحده ليجعل الإنسان فاضلاً. ولكنه يدرب جمهوراً كبيراً من المواطنين على مراعاة عادات الاعتدال، والنظام، وبعد النظر وضبط النفس. فإن كان لا يؤدى إلى الفضيلة مباشرة عن طريق الإرادة، فإنه يقرب الناس منها عن طريق توجيه عاداتهم بصورة غير محسوسة. فإن سيطر هذا المبدأ (مبدأ المنفعة الشخصية) على العالم الأخلاق كله، أصبحت الفضائل الكبرى غير العادية نادرة، ما فى ذلك شك. ولكننى أرى، أن ضروب الفساد والانحرافات الكبيرة سيقل شيوعها بين الناس. فإن كان هذا المبدأ يمنع عدداً كبيراً من الناس من أن يسموا على مستوى البشر علواً كبيراً، فإنه يحول بين عدد كبير من الذين يهبطون دون هذا المستوى، وبين أن يظلوا فى غيهم سادرين. فإن أنا نظرت إلى هذا المبدأ من حيث بعض الأفراد، وجدته يهوى بهم إلى دون المستوى المعهود؛ أما إذا نظرت إلى البشر جملة فإنه يسمو بهم عنه.

لست أخشى أن أقرر أن مبدأ المصلحة الشخصية هذا يبدو لى فى الجملة، أصلح النظريات الفلسفية كلها لاحتياجات أهل العصر؛ فهو ضمانهم الرئيسى الباقى لهم ضد أنفسهم، وعلى هذا وجب أن تتجه إليه بحوث الأخلاقيين فى عصرنا؛ وحتى إن رأوه قاصراً أو ناقصاً فإنه يجب أن يتبع على أساس أنه ضرورة.

فليست الأنانية فى فرنسا أشد منها فى أمريكا؛ فالفرق الوحيد بينهما أنها مستنيرة فى أمريكا، وليست كذلك فى فرنسا. فكل أمريكى يعرف متى يضحى بشىء من مصالحه الخاصة فى سبيل إنقاذ سائرها. أما الفرنسيون فيبغون أن ينقذوا كل شىء، وكثيراً ما يفقدون بذلك كل شىء. فكل امرىء حولى يبدو أنه عقد عزمه على أن يعلم معاصريه بلسانه، وبقدرته؛ أن كل ما هو نافع لا يمكن أن يكون خطأ ألبتة. أليس فينا رجل رشيد يضطلع بتفهيم الناس أن ما هو صواب وحق يصح أن يكون نافعاً؟

ليس فى العالم قوة تستطيع أن تمنع المساواة المتزايدة فى الأحوال الاجتماعية، من أن تدفع العقل البشرى إلى السعى وراء ما هو نافع، ولا أن تمنع كل عضو من أعضاء المجتمع من أن يهتم بشئون نفسه، ومن ثم وجب أن نتوقع أن تصبح المصلحة الشخصية أكثر مما كانت فى أى وقت من الأوقات الحافز الرئيسى لأفعال الإنسان وسلوكه إن لم تصبح حافزها الأوحد، ومع ذلك فقد بقى علينا أن نرى الطريقة التى يستطيع بها كل إنسان أن يعرف مصلحته الشخصية، فإن كان أعضاء مجتمع ما، يصبحون أكثر جهلا وغلظة كلما ازدادوا مساواة فى أحوالهم الاجتماعية، فمن العسير علينا أن نتكهن بمدى الإفراط الأخرق الذى ستدفعهم إليه أنانيتهم. هذا، وإن أحداً لا يستطيع أن يقول سلفاً، أى عار، وأى بؤس، سيجرونه على أنفسهم مخافة أن يضطروا إلى التضحية بشىء من رفاهيتهم فى سبيل بنى جنسهم.

لا أعتقد أن مبدأ المصلحة الشخصيةبالشكل الذى تعرفه أمريكا، أمر واضح كل الوضوح من كل نواحيه، ولكنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من الحقائق واضحة جلية، حتى لا يسع الناس إلا أن يدركوها لو أنهم كانوا متعلمين، فعلينا أن ننشر التعليم إذن بين الناس على كل حال، فعصر التضحية بالذات والأخذ بالفضائل التى تعد نزوعات فطرية يمر بسرعة، على حين أن العصر الذى لا تستطيع فيه الحرية ولا السلام العام، ولا النظام الاجتماعى نفسه أن تقوم وتستقر من غير تربية وتعليم، قد أخذ يقترب منا حثيثاً.

الفصـــل التاسع

الأمريكيون يطبقون مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح على الشئون الدينية

إن كان مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح لا ينظر إلا إلى هذا العالم الحاضر لكان مبدأ ناقصاً، فثم تضحيات كثيرة لا تجد ثوابها إلا فى عالم آخر غير هذا العالم، وأيًا كانت تلك المهارة العقلية التى تتجلى فى التدليل على فائدة الفضيلة، فليس من السهولة فى شىء أن تحمل امرءاً، لا يخطر بباله أنه سيموت يوماً ما، على أن يحيا حياة مستقيمة صالحة.

ومن ثم كان لزاماً علينا أن نستوثق من إمكان التوفيق بين مبدأ المصلحة الشخصية هذا وبين المعتقدات الدينية، فالفلاسفة الذين ينشدون هذا النظام الأخلاق يقولون لنا أن السعادة فى هذه الدنيا تقتضى المرء أن يراقب شهواته، ويكف نفسه عن الإفراط فيها، وأن السعادة الدائمة لا تدرك إلا بالنزول عن آلاف من المتع العابرة، وأن الإنسان يجب أن ينتصر دائماً فى جهاده ضد نفسه لكى يحصل على ما فيه منفعته الخاصة، وكذلك كان مؤسسو الديانات الكبرى يقولون بمثل هذا القول عينه، والطريق الذى يشيرون به على الإنسان أن يسلكه هو الطريق عينه الذى يشير به هؤلاء الفلاسفة إلا أن الهدف النهائى فيه أبعد مدى. فبدلاً من أن يجعلوا ثواب الإنسان على ما يبذله من التضحيات المفروضة عليه، فى هذه الدنيا وحدها، جعلوه فى الآخرة.

ومع ذلك فلست أرى أن جميع الذين يمارسون الفضيلة مدفوعون إليها بحوافز دينية لا يمارسونها إلا بأمل الحصول على الثواب، فقد صادفت مسيحيين غيورين ينسون أنفسهم باستمرار، كى يعملوا بمزيد من الحماسة على إسعاد بنى جنسهم؛ وسمعتهم يصرحون أن كل ما فعلوه لم يكن له من غرض إلا الحصول على الثواب فى الآخرة، ولا يسعنى إلا أن أظن أنهم إنما يخادعون أنفسهم ويسيئون إليها، إنى لأحترمهم احتراماً عظيماً لدرجة لا أستطيع معها أن أصدقهم فيما يقولون.

حقاً أن المسيحية تقول بأن الإنسان يجب أن يؤثر جاره على نفسه كى يحظى بالنعيم فى الآخرة، ولكن المسيحية تقول أيضاً بأن الإنسان يجب أن يكون نافعاً لبنى جنسه محبة منه فى الله، وهو قول قدسى سام حقاً، فالإنسان يبحث بعقله عن معرفة ما يرضى الله فيدرك أن

النظام هو سنة الخالق، وبذا يعمل جهده طواعية فى السير على هذه السنة الكبرى. فبينما هو يضحى بمصالحه الشخصية فى سبيل هذا النظام الكامل الشامل للخليقة كلها فإنه لا ينتظر جزاء سوى الاستمتاع بالتفكير فيه.

لست أومن بأن المصلحة الشخصية هى الحافز الأوحد الذى يحرك المتدينين. وإن كنت أعتقد أن المصلحة الشخصية هى الوسيلة الكبرى التى تصطنعها الأديان ذاتها كى تحكم بها الناس وتوجههم إلى سلوك الطريق المستقيم، ولا يخامرنى أى شك فى أنها تصل بهذه الوسيلة إلى قلوب الجماهير، وتحظى بالقبول لديهم. أنا لا أدرك بشكل واضح السبب فى أن مبدأ المصلحة الشخصية بمعناه الصحيح هذا يؤدى إلى تقويض معتقدات الناس الدينية، وأنه لأسهل من ذلك علىَّ، أن أبين السبب فى أنه يقويها فيهم ويقربهم منها. فلنفرض أن الحصول على السعادة فى هذه الدنيا يقتضى الإنسان أن يعارض غرائزه فى جميع الأحوال، وأن لا يعمل فى هذه الحياة عملاً ما إلا عن قصد وبعد تدبير.. فبدلاً من أن يندفع بشكل أعمى وراء رغائبه الأولية، يكون قد تعلم فن مقاومتها وعود نفسه أن يضحى فى سهولة بمسراته العاجلة فى سبيل مصلحة حياته الدائمة كلها. فإن كان مثل هذا الرجل يؤمن بالدين الذى يدين به حقاً فإنه لا يكلفه الخضوع لما يفرضه عليه من قيود إلا قليلاً. فالعقل ذاته يشير عليه بالطاعة والإذعان، والعادة قد أعدته للصبر على تلك القيود. فإن خامرته الشكوك فيما يتعلق بالموضوع الذى علق عليه آماله، فإنه لن يسمح لهذه الشكوك أن تقف مع ذلك فى سبيله، وسيقرر أنه من الحكمة أن يخاطر ببعض المناعم الدنيوية كى يحتفظ بحقه فى ميراثه العظيم الذى وعد به فى الآخرة، قال بسكال: لأن يكون المرء مخطئاً فى اعتقاده أن الدين المسيحى حق ليس خسارة كبيرة لأحد. ولكن ما أفظع أن يكون الخطأ فى اعتقاده أنه دين كاذب.

فلا يبدى الأمريكيون ذلك النوع الفظيع من عدم الاكتراث بشئون الحياة الأخرى، ولا هم يصطنعون شيئاً من تلك الكبرياء الصبيانية فى استهتارهم بالأخطار التى يرجون أن ينجوا من شرورها، ومن ثم كانوا يعترفون بإيمانهم بدينهم من غير أن يستشعروا أى خجل أو أى ضعف من جراء هذا الاعتراف، بل إنا لنجدهم حتى فى شدة غيرتهم ليبدون شيئاً هادئاً هدوءاً يجل عن الوصف، ومنظماً كل التنظيم ومقصوداً كل القصد، حتى لنكاد نتصور أن العقل، لا القلب، هو الذى حدا بهم إلى المجىء إلى المذبح (المحراب).

فالأمريكيون لا يتبعون دينهم بدافع من المصلحة الشخصية فحسب، بل كثيراً ما يجعلون المصالح التى تحفزهم إلى اتباعه من مصالح هذه الدنيا. لا يخفى أن القسس فى العصر الوسيط لم يكونوا يتحدثون إلى الناس إلا عن الحياة الأخرى، ولا يهتمون بأن يبرهنوا لهم أن المسيحى المخلص لدينه يمكن أن يكون سعيداً فى هذه الدنيا. ولكن الوعاظ الأمريكيين يشيرون دائماً إلى شئون هذه الدنيا، ولا يباعدون اهتمامهم عنها إلا بكل مشقة، فكى يصلوا إلى قلوب سامعيهم دأبوا على أن يوضحوا لهم أن المعتقدات الدينية تعاون على الحرية والاطمئنان العام، وكثيراً ما يكون من الصعوبة بمكان أن نعرف من مواعظهم إن كان الغرض الرئيسى من الدين الحصول على السعادة الأبدية فى الآخرة أو الاستمتاع بالسعادة فى هذه الدنيا.

الفصـــل العاشر

ميل الأمريكيين إلى الرفاهية المادية

ليست شهوة الأمريكيين إلى إرضاء الرفاهية المادية أمراً مقصوراً دائماً على فئة أو طبقة معينة، ولكنه أمر عام فيهم، فإن كانوا لا يشعرون به جميعاً بطريقة واحدة، فهم يشعرون به بشكل ما، فالحرص على إرضاء أدنى مطالب الجسد وتوفير حتى أدنى وسائل الراحة فى هذه الدنيا يشغل عقول الأمريكيين كافة، وثم شىء من هذا القبيل يتجلى فى أوربا ويتزايد فيها باستمرار، فمن الأسباب التى تؤدى إلى هذه النتائج المتشابهة فى كل من الدنيا القديمة والدنيا الجديدة ما هو متصل بالموضوع الذى نحن بصدده هنا، فجدير بنا أن ندرس هذه الأسباب.

لما كانت الأموال ثابتة فى الأسر يتوارثها الأبناء عن الآباء، صار عدد كبير من الناس يستمتعون بمباهج الحياة من غير أن يشعروا بميل خاص إلى هذه المباهج يعدونه مقصوراً عليهم وحدهم دون غيرهم، فقلب الإنسان لا ينشغل بملكيته بشىء قيم لا ينازعه فيه أحد، بقدر ما ينشغل برغبته فى حيازته. (وهى رغبة لم تجد ما يرضيها بعدُ كل الرضى) وبالخوف الدائم من أن يزول عنه، فالأغنياء فى الجماعات الأرستقراطية لا يساورهم أى خوف من تغير حالهم التى هم عليها، لأنهم لم يخبروا أية حالة غيرها، فيندر أن يمر وجود مثل تلك الأحوال بخواطرهم، وليست وسائل الراحة فى الحياة الدنيا هى الغرض من الحياة، فهى لا تعدو أن تكون طريقة من طرق العيش ليس إلا؛ وهم ينظرون إليها كما ينظرون إلى الوجود نفسه، يستمتعون به من غير أن يفكروا فيه، وعندما يكون الميل الطبيعى الذى يستشعره الناس جميعاً بشأن المعيشة الهنية، قد وجد بذلك ما يرضيه فى غير مشقة، وفى غير خوف، اتجهت قدراتهم العقلية اتجاهاً آخر - إلى مشروعات أشق وأسمى تستثير عقولهم وتستغرق انتباههم.

ومن ثم كان الأرستقراطيون كثيراً ما يبدون، وهم وسط هذه المتع الحسية، احتقاراً لها مصحوباً بشىء من الاستعلاء، ويظهرون قوة عجيبة للاحتمال والصبر إذا ما حرموها. فجميع الانقلابات التى هزت الأرستقراطية أو قضت عليها كشفت عن السهولة التى يستغنى بها هؤلاء الناس الذين ألفوا الاستمتاع بالكماليات الزائدة على الحاجة - عن

الضروريات نفسها، على حين أن الذين كدحوا وجاهدوا فى سبيل الكفاح من أجل العيش، لا يكادون يجدون ما يمسك عليهم أرماقهم إذا ما فقدوا هذا الكفاف .

فإن انتقلنا من الطبقات العليا ونظرنا إلى الطبقات الدنيا وجدنا نتائج شبيهة نشأت عن أسباب مضادة لتلك الأسباب، ففى الأمة التي تسودها أرستقراطية تجعل المجتمع فيها جامداً، نجد الشعب يعتاد الفقر فى النهاية كما يعتاد الأغنياء الغنى والرخاء، ولا يساور الأغنياء أى قلق بشأن راحتهم المادية لأنهم يستمتعون بها من غير جهد بذلوه من أجلها، على حين لا يفكر الفقراء فى أشياء غلب عليهم اليأس من الحصول عليها، ولا يكادون يعلمون عنها شيئاً يكفى لحملهم على الرغبة فيها، فخيال الفقراء الذين فى أمثال هذه الجماعات يندفع وراء تصور دنيا أخرى؛ فأنواع البؤس التى فى الحياة الواقعية تحدق بخيالهم ولكنهم يهربون منها وينطلقون يسعون وراء الملذات فيما وراءها بكثير .

وعلى العكس من ذلك إذا ما ألغيت الفروق والميزات الاجتماعية بإلغاء الرتب والطبقات، وإذا ما قسمت الأملاك الموروثة، وانتشرت الحرية والتعليم كل انتشار - فعندئذ تراود الرغبة فى الحصول على وسائل الراحة والمتعة فى هذه الحياة - تراود خيال الفقراء، ويستولى الفزع من فقدانها على أخيلة الأغنياء، ثم تبرز عدة ثروات ضئيلة، لأصحاب نصيب كاف من المتع الحسية، يسر قيام ميل فيهم إلى مثل هذه المتع، ولكنه نصيب لا يكفى لإرضاء هذا الميل، فهم لا يستطيعون أبداً أن يحصلوا عليها من غير مجهود يبذلونه فيها، ذلك إلى أنهم لا ينهمكون فيها من غير خوف يساورهم ويقض مضاجعهم، فلا غرو أن كانوا يبذلون دائماً كل جهد فى السعى وراء هذه المتع أو الاحتفاظ بها وهى متع رائعة ولكنها ناقصة تنفلت منهم باستمرار .

فإن أنا أردت أن أبحث عن أهم شهوة طبيعية فى الناس الذين يستثير تحول أصلهم أو قلة حظهم، نشاطهم أو يحد منه، لما وجدت شهوة أنسب بأحوالهم من حب الرخاء المادى؛ فالميل إلى إرضاء مطالب الجسد المادية هذا، شهوة من شهوات الطبقات الوسطى تنمو وتنتشر مع هذه الطبقات التى يصعد منها هذا الميل حتى يصل إلى طبقات المجتمع العليا.. ويهبط كذلك حتى ينفذ إلى كتلة الشعب كله .

لم يحدث أنى صادفت فى أمريكا مواطناً واحداً بلغ به الفقر مبلغاً يمنعه من أن يلقى نظرة كلها أمل أو كلها حسد على ما يستمتع به الأغنياء من متع ومسرات، ولا من لم يمتلك سلفاً فى تخيلاته وأحلامه كل تلك الخيرات والنعم التى ما زالت الأقدار تصر فى عناد على حرمانه إياها .

هذا، ومن جهة أخرى لم أشاهد بين الأغنياء من أهالى الولايات المتحدة، شيئاً من ذلك الاحتقار المستعلى للمتع الحسية الذى نجده أحياناً فى أكثر الأرستقراطيين ثراء، وأشدهم انحلالاً خلقياً. فأغلب هؤلاء الأثرياء كانوا فقراء يوماً ما، وشعروا بلذعة الحاجة

ومرارة الفقر، وظلوا طويلاً ضحية لسوء الحظ ونكد الأيام. أما بعد أن تحقق لهم الفوز فقد ظلت تلك الشهوات التى رافقتهم فى صراع مع الفقر ، باقية ، فكأنى بعقولهم قد ثملت بتلك المتع الصغيرة التى ظلوا يسعون وراءها أربعين عاماً أو تزيد .

وليس معنى ذلك أن فى الولايات المتحدة، كما هو الشأن فى غيرها من البلاد، عدداً كبيراً من الأغنياء قد أصبحوا بحصولهم على أملاكهم عن طريق الإرث، يملكون ثروة لم يبذلوا فيها أى جهد، ولم يكسبوها بعرق جبينهم؛ فحتى هؤلاء الناس ليسوا أقل تعلقاً بمسرات الحياة المادية . لقد أصبح الميل إلى الرفاهية المادية غرام الأمة الغالب عليها ، وصار تيار العواطف البشرية العظيم يجرى فى هذا الاتجاه ويجرف معه كل شىء يصادفه فى طريقه .

الفصل الحادى عشر

ما يترتب على الغرام بالمتع الحسية من آثار خاصة فى البلاد الديمقراطية

قد يتوه القارىء مما ذكرناه توا أن غرام الأمريكيين بالمتع الحسية، يجب أن يدفعهم باستمرار إلى الانحراف عن جادة الأخلاق الكريمة، ويعكر صفو الأسر، ويهدد سلامة المجتمع كله فى جملته. ولكن الأمر ليس كذلك، فالغرام بالمتع الحسية هذا، يؤدى فى البلاد الديمقراطية إلى نتائج مختلفة كل الاختلاف عما يؤدى إليها فى الأمم الأرستقراطية.

قد يحدث فى بعض الأحيان أن يزل الأرستقراطيون شيئاً فشيئاً، وينهمكون فى الملذات الحسية وحدها، بعد ما يكونون قد ملوا الاشتغال بالشئون العامة، وقد فاضت جيوبهم بالأموال، وصاروا يعيشون وسط معتقدات دينية منهارة، وفى دولة آخذة فى التدهور. أما فى الأوقات الأخرى، فقوة الملك[1] أو ضعف الشعب، تضطر النبلاء من غير أن تجردهم من أملاكهم وثرواتهم، إلى أن يقفوا بمنأى عن إدارة الشئون العامة، وعندما يكون الطريق إلى الاشتغال بالمشروعات الجسام مغلقاً فى وجوههم، نجدهم يستسلمون إلى رغباتهم المضطربة - فينهمكون إلى الأذقان فى الملذات الحسية لينسوا فيها ما كان لهم من أمجاد سالفة.

وهكذا عندما يتجه أعضاء هيئة أرستقراطية إلى السعى وراء المتع الحسية، فإنهم يوجهون إلى هذه الغاية كل ما كسبوه من همة ونشاط فى أثناء خبرتهم الطويلة بالقوة والسلطان. وأمثالهم لايقنعون بالسعى وراء توفير وسائل الراحة، فلا يرضون إلا بتلك الدعارة الحمراء وذلك الفساد البراق؛ فهم يعبدون الملذات الحسية بشكل باهر، حتى لكأنهم يتبارون فى التفنن فى إفساد طبائعهم الإنسانية، وكلما كانت الأرستقراطية قوية ذائعة الصيت تستمتع بحرية واسعة، كانت أشد دعارة وفجراً؛ ومهما كانت فضائلهم السابقة متألقة، لايسعنى إلا أن أبشر هذه الأرستقراطية بأن لن يفوقها شيء سوى فخامة تلك الرذائل.

---

(١) لعل المؤلف يشير هنا إلى ريشلو الوزير الفرنسى (١٥٨٥ - ١٦٤٢) الذى ظل يعمل باستمرار على إبعاد النبلاء الفرنسيين عن مراكز الحكم والسلطة.

إن هذا الميل إلى المتع الحسية لا يؤدى بالشعب الديمقراطى إلى مثل هذا الإفراط، فمحبة الرفاهية تتجلى هنا فى جميع الناس فى صورة شهوة عارمة صامدة، وإن كانت محدودة المدى. فليس الأمر عندهم أمر إنشاء قصور شامخة، وتسخير الطبيعة، أو محاكاتها، ولا التنقيب فى أرجاء الدنيا كلها حباً فى إرضاء شهوة رجل واحد؛ ولكنه أمر إضافة بضعة أمتار من الأرض إلى حقل، وغرس بضع أشجار من الفاكهة فى بستان، وتوسيع مسكن، والعمل الدائب على جعل المعيشة أرخى وأروح للنفس، وأكثر ملاءمة لها، وتحاشى المتاعب، وتوفير أدنى الحاجات فى غير مشقة، وبتكاليف لا تذكر. وتلك كلها أغراض توافه، لا شك، ومع ذلك فالنفس البشرية تتشبث بها وتعنى باستمرار، حتى لتحجب عنها أمور سائر العالم، بل وقد تحول بينها وبين السماء.

هذا، ولعل قائلاً يقول إن ذلك لا يصدق إلا على أفراد المجتمع المتوسطى الحال، أما الأثرياء فيبدون ميولاً شبيهة بما كان لهم فى العصور الأرستقراطية. ولكنى لا أستسيغ هذا الرأى، فمن حيث غرام الناس بالمتع الحسية، فميول الأثرياء فى البلاد الديمقراطية لا تختلف فى كثير عن ميول سائر أفراد الشعب، فهم إما يشاركونهم فيها فعلاً، لأنهم منه نبتوا، أو لأنهم يعدونه واجباً عليهم أن يذعنوا لها. فاتهام الناس بالملذات الحسية فى المجتمع الديمقراطى يتخذ صورة معتدلة هادئة يتحتم على الجميع أن يراعوها، فمن الصعب أن يشذ المرء منهم عن القاعدة العامة فى رذائله صعوبة شذوذه عنها فى فضائله، ومن ثم عنى الأغنياء فى الأمم الديمقراطية بسد احتياجاتهم البسيطة أكثر مما يعنون بإشباع ملذاتهم غير العادية، وبذلك يرضون طائفة من رغباتهم الصغيرة من غير أن ينهمكوا فى إرضاء أية شهوة كبيرة شاذة عن المألوف. وهذا ما يجعلهم ضعفاء مترهلين أكثر مما يجعلهم فجاراً داعرين.

وهذا الميل الخاص إلى المتع الحسية الذى يتجلى فى أهل العصور الديمقراطية ليس ضد النظام العام فى شىء، بل إنه ليقتضى توافر هذا النظام حتى يتسنى له أن يتحقق فعلاً؛ ولا هو يناقض الأخلاق العامة، لأن الأخلاق الطيبة تعاون على مراعاة استقرار الهدوء العام، وعلى ازدهار الصناعة والتجارة، هذا، وكثيراً ما يتحد هذا الميل مع نوع من الأخلاق الدينية. فكل الناس يودون أن يحصلوا على أكبر نصيب يستطيعون الحصول عليه من هذه الدنيا دون أن يخاطروا بنصيبهم من النعيم فى الآخرة. فثم ملذات حسية لا يتسنى للمرء أن ينهمك فيها من غير أن يتورط فى جريمة ما، ولذلك فهو يحرص كل الحرص على تجنبها، على حين أن ثمة أخرى لا يحرمها الدين وتقرها الأخلاق؛ فإلى هذه المتع يتجه القلب والخيال، وتتجه الحياة نفسها فى غير تحفظ، حتى أن الناس فى انهماكهم فى السعى وراءها قد يغفلون عما فى متناول أيديهم من مقتنيات ثمينة تعد قوام مجد البشر وعظمتهم.

ليس ما أنعيه على مبدأ المساواة أنه يفضى بالناس إلى السعى وراء المتع المحرمة، بل ما أنعيه عليه أنه يستنفد كل جهودهم ويحصرها فى السعى وراء الحصول على تلك المتع الحلال، وبذلك ينشأ فى العالم نوع من المادية الشريفة، التى لا تفسد الروح وإن كانت تضعفها، وتعمل فى صمت وسكون على استنفاد مصادر نشاطها.

الفصل الثانى عشر

من الأمريكيين من يسرفون فى التعصب للناحية الروحية

على الرغم من أن الرغبة فى الحصول على ما فى هذه الدنيا من طيبات وخيرات، تعد غرام الشعب الأمريكى المسيطر عليه، فثم فترات قصار تبدو فيها نفوس الأمريكيين وكأنها قد تخلصت بغتة من قيود المادة التى تكبلها، واندفعت تحلق فى السماء - فكثيراً ما يصادف المرء فى ولايات الاتحاد كلها - ولا سيما فى تلك التى فى أقاصى الغرب القليل السكان، يصادف وعاظاً متجولين يدعون الناس إلى طاعة الله، فقد نرى أسرات بأكملها وشيوخاً، ونساءً وأطفالاً يجتازون الممرات الوعرة، ويعبرون القفار غير المطروقة، ويقطعون المسافات الشاسعة كي يشهدوا اجتماعاً عقد فى معسكر، حيث يستمعون إلى ما يلقى فيها من المواعظ والخطب، ويقضون عدة أيام وليال ينسون فيها هموم الأعمال، بل ومطالب الجسم الملحة نفسها.

وقد يصادف المرء فى أرجاء متفرقة فى أمريكا أناساً تشبعوا بروحانية مسرفة، وعارمة احياناً، لا نكاد نجد لها مثيلاً فى أوربا، وقد تظهر الفينة بعد الفينة طوائف من الناس غريبة كل الغرابة، تحاول كل طائفة منها أن تشق لها طريقاً جديدة إلى سعادة الآخرة ونعيمها، فالجنون الدينى منتشر فى الولايات المتحدة أيما انتشار.

ومع ذلك يجب ألا تستثير فينا هذه الحقائق أية دهشة، فليس الإنسان هو الذى غرس فى نفسه محبة اللانهائى والميل إلى ما هو خالد لا يفنى. وليست هذه الميول السامية من ولائد إرادته المتقلبة، ولكن جذورها الراسخة متأصلة فى طبيعة الإنسان؛ ووجودها باق على الرغم مما قد يبذله من جهود ضدها، حقاً إنه قد يستطيع أن يعوقها ويقاومها، ولكنه لا يستطيع أن يقضى عليها بحال من الأحوال.

فللروح مطالب يجب أن تقضى لها، وأيا كانت الجهود التى تبذل للانحراف بالروح عن غاياتها فإنها لا تلبث أن يصيبها الملل، وتصبح قلقة مضطربة وسط المسرات الحسية، فلو كانت مواهب الكثرة العظمى من الناس موجهة نحو السعى وراء الأمور المادية وحدها دون

غيرها ، لصح لنا أن نتوقع حدوث رد فعل عجيب فى نفوس بعض الناس[١] فتهيم أحراراً فى عالم الروح مخافة أن تظل مقيدة بأغلال الجسم ومعتقلة فى سجنه الضيق .

فليس عجيباً إذن أن يقوم وسط جماعة تتجه أفكارها نحو العناية بشئون هذه الدنيا ، بضعة أفراد يتجهون نحو السماء وحدها ، وإنى ليدهشنى أن كان التصوف لايتقدم فى هذا فى وقت قريب فى أمة كلها عمل على زيادة رفاهيتها وسعادتها فى هذه الدنيا .

قيل إن صحارى طيبة الموحشة ، كانت حافلة بجماعات ممن اضطهدهم الأباطرة ، وأفزعتهم مذابح الملاعب (السرك) ، ولكنى أرى أن السبب فى ذلك يعود إلى ترف روما ، وإلى فلسفة اليونان الأبيقورية .

فإن لم تكن أحوال الأمريكيين الاجتماعية وظروفهم وقوانينهم الحالية ، قد قصرت عقولهم كل القصر على الاتجاه إلى السعادة فى هذه الدنيا ، لكان من المحتمل أن يكونوا أكثر تحفظاً وأعظم خبرة كلما اتجه انتباههم إلى هذه الأمور غير المادية ، ولكان من الجائز أن يكبحوا أنفسهم فى غير مشقة ، ولكنهم مع ذلك يشعرون بأنهم سجناء فى نطاق معين ، قد لايسمح لهم باجتيازه ، وإن حدث أن اجتازوه لم تعرف عقولهم أين تقف وتثبت بل كثيراً ما يندفعون طلقاء إلى ما وراء المعقول الذى تقره الفطرة السليمة .

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى ما انتشر فى العصور الأولى للمسيحية ، من الرهبنة والانقطاع عن الناس وعن الدنيا ، والاعتكاف فى الأديرة والصوامع لعبادة الله . والمعروف أن المصريين المسيحيين كانوا أول من ترهب فى البرارى الموحشة ، ثم تبعهم فى ذلك غيرهم من مسيحى الشرق والغرب .

الفصل الثالث عشر

الأمريكيون قلقون
على الرغم مما هم فيه من ازدهار

لايعدم المرء أن يصادف فى بعض نواح قصية فى الدنيا القديمة ، أقاليم صغيرة كأنها نسيت فى زحمة الضجيج العالمى ، فظلت جامدة ، على حين يتحرك كل شىء حولها . وتعيش الجمهرة الكبرى من سكان هذه الأقاليم فى فقر مدقع وجهل دامس ، لايشاركون فى شئون الحكم بشىء ؛ وكثيراً ما يكونون موضع ظلم الحكومة واضطهادها ، ومع ذلك كله نرى على وجوههم سمة الهدوء ، ونلمس فيهم خفة الروح .

لقد شاهدت فى أمريكا أعظم الناس حرية ، وأكثرهم استنارة يعيشون فى أسعد حال يمكن أن تتيحها هذه الدنيا لأمة ما ، ومع ذلك كانو يبدون ، فى نظرى ، وكأن سحابة تغشى وجوههم باستمرار ، وكنت أراهم متزمتين كل التزمت حتى ليغلب عليهم الحزن وهم وسط ملذاتهم .

وأهم سبب لهذا التناقض أن الأولين لايفكرون فيما يعانونه من بلايا ، على حين يفكر الآخرون فى الحصول على مزايا ليست فى متناولهم . فمن الغريب أن نرى الأمريكيين ينشطون فى العمل على ما فيه سعادتهم الخاصة نشاط المحموم ، ومع ذلك نلحظ فيهم ذلك الفزع الغامض الذى يقض مضاجعهم على الدوام خشية ألا يكونوا قد اختاروا أقصر الطرق التى تؤدى بهم إلى تلك السعادة .

ففى الولايات المتحدة يتشبث الإنسان بخيرات هذه الدنيا كل التشبث كما لو كان واثقاً من أنه سيعيش أبداً ، فتراه عجولاً كل العجلة فى الاستيلاء على جميع ما عسى أن يكون فى متناوله منها ، حتى ليخيل إليك أنه فى خوف دائم ألا يطول به الأجل حتى يستمتع بها ، فتراه يمد يده إلى كل شىء . ولكنه لايحكم القبض على أى شىء ، بل سرعان ما يدعه يفلت منه ليسارع إلى السعى وراء لذات أخر جديدة .

فقد يبتنى الرجل فى الولايات المتحدة بيتاً له ليقضى فيه شيخوخته وإذا به يبيعه قبل أن يتم تركيب أسقفه ؛ ويزرع بستاناً له ، ثم لايلبث أن يؤجره لغيره بعد أن تكون أشجاره

قد أوشكت أن تؤتى أكلها؛ ويعد حقلاً للحرث والزرع ثم يدعه لسواه يجنى غلاته؛ ويختار مهنة يحترفها وإذا به يهجرها إلى غيرها ؛ وينزل مكاناً بغية أن يستقر فيه ولكن ما أسرع ما يتركه إلى حيث يستطيع أن يجرى وراء أهوائه ورغباته المتقلبة. فإن سمحت له أشغاله الخاصة بقليل من وقت الفراغ انغمس فى توه فى التيارات السياسية؛ وإن هو توافرت له بضعة أيام عطلة عقب سنة قضاها فى عمل متصل لاهوادة فيه، دفعه حب الاستطلاع الشديد إلى المضى إلى مجاهل الولايات المتحدة، فيقطع ألفاً وخمسمائة ميل فى بضعة أيام ينضى فيها عن نفسه ما كان ينعم به من سعادة. وأخيراً يوافيه أجله المحتوم قبل أن يعتريه الملل من سعيه العقيم وراء تلك السعادة التامة التى ظلت تفلت من يده باستمرار.

إن المرء ليدهش لأول وهلة عندما يفكر فى هذا القلق العجيب الذى يساور عدداً كبيراً ممن أنعم الله عليهم بالسعادة، فيكونون قلقين مضطربين على الرغم مما هم فيه من رخاء، ومع ذلك فهذا منظر قديم قدم العالم كله؛ ولكن الجديد فيه أن نجد شعباً بأسره يتخذه مثالاً له.

فيجب أن نعد ميل الأمريكيين إلى المتع الحسية المصدر الأصلى لهذا القلق الذى يتجلى فى أفعالهم وسلوكهم والذى ينشأ عنه كذلك عدم الثبات هذا الذى يضربون لنا كل يوم أمثلة جديدة عليه. فمن يجعل كل همه الجرى وراء السعادة الدنيوية يكن دائماً فى عجلة من أمره، إذ ليس لديهم سوى وقت محدود ليعثر فيه بهذه السعادة ويستمتع بها. فذكرى قصر الأجل تظل تحفزه باستمرار، فضلاً عما لديه من خيرات. لايزال يتصور كل لحظة تمر به، آلافاً غيرها، يحول الموت دون استمتاعه بها إذا هو لم يسع وراء اقتناصها، فهذه الفكرة تقض مضجعه، وتملؤه خوفاً وحسرة، فيظل عقله فى نوع من الاضطراب لاينقطع، ويدفعه إلى أن يغير خططه، ويبدل مسكنه باستمرار.

فإن أضفنا إلى ميل الأمريكى إلى المتع المادية ، حالة اجتماعية تتميز بأن لاقانون فيها ولا عرف، يقضى على كل إنسان بأن يلتزم مركزه ولا يبرحه إلى غيره ، لكان هذا داعياً جديداً قوياً يضاف إلى ما سبق من دواعى هذا القلق النفسى ، ومن ثم يرى الناس باستمرار أن يغيروا اتجاههم ، مخافة أن يضلوا عن أقصر طريق يؤدى بهم إلى السعادة التى ينشدونها .

هذا، ومن السهل أن نتصور أن الناس الذين عقدوا عزمهم على انتهاب اللذات الحسية ، إن كانوا يعملون على تحقيق ما يشتهونه بإقبال ولهفة، فسرعان ما يفتر نشاطهم وتثبط هممهم، فإذا كان ما يهدفون إليه لايعدو المتعة، وجب أن تكون الوسائل التى يصطنعونها لتحقيق هذا الغرض سريعة ميسرة ، وإلا كانت المشقة التى يعانونها فى إرضاء شهواتهم أشد من استمتاعهم بهذا الإرضاء نفسه. فعقليات هؤلاء الناس إذن متوقدة

وفاترة ، عنيفة ومترهلة معاً ، وفى وقت واحد ، إنهم لا يخشون الموت مثلما يخشون المثابرة على بذل جهود متصلة لبلوغ غاية معينة .

ويؤدى بنا مبدأ المساواة فى الأحوال الاجتماعية ، من طريق أخرى أقصر من السابقة ، إلى كثير من النتائج التى أشرت إليها هنا ، فحيثما تلغى جميع الامتيازات القائمة على من الثروة والأصل ، وتصبح جميع الوظائف وجميع المهن مفتوحة للجميع وحينما يستطيع أى إنسان أن يصل بفضل همته ونشاطه إلى الذروة فى أية مهنة أو وظيفة ، فإنه عندئذ يرى أمامه مجالاً منفسحاً غير محدود لمطامحه ، وسرعان ما يخيل إليه أنه لم يولد إلا لمستقبل زاهر عظيم ، ولكن هذه وجهة نظر خاطئة تصححها لنا الخبرة فى كل يوم يمر بنا . فالمساواة نفسها التى تتيح للمواطنين أن تداعبهم تلك الآمال العراض ، تجعلهم أقل قدرة على تحقيقها ، لأنها تفرض على قواهم قيوداً تكبحهم من كل ناحية ؛ على حين تتيح المجال لرغائبهم كى تمتد وتتسع . فليس هؤلاء المواطنون عاجزين ضعافاً فحسب ، بل إنهم ليصادفون فى كل خطوة يخطونها عقبات كأداء لم يحسبوا لها حساباً من قبل . لقد قضوا على ما كان لبعض إخوانهم من امتيازات كانت عقبة فى سبيل تقدمهم ، ولكنهم فتحوا فى الوقت نفسه الأبواب على مصاريعها للمنافسة العامة ، لقد غيرت الحواجز والسدود شكلها ، ولكنها لم تغير مواضعها ، فحيثما يكن الناس متساوين تقريباً ، ينهجون مسلكاً واحداً ، يكن عسيراً على أى واحد منهم أن يتقدم بخطى سريعة ، وأن يشق له طريقاً وسط الجموع الزاخرة المتزاحمة التى تحيط به ، وتضغط عليه من كل جانب . فالصراع الدائم بين تلك النزعات الفطرية التى تدعو إلى المساواة فى الأحوال الاجتماعية ، وبين الوسائل التى تقدمها لإرضائها تعذب النفس وترهقها .

ليس عسيراً أن نتصور أن جماعة من الناس بلغوا درجة من الحرية ترضيهم فقنعوا بها كل القناعة ، ويطيب لهم أن يستمتعوا باستقلالهم فى غير عجلة ، وفى غير ما قلق . ولكن الناس لا يستطيعون أبداً أن يقيموا لهم مساواة يرضون بها ويقنعون . فمهما بذلوا من جهود فلن ينجحوا فى أن يهبطوا بجميع الأحوال الاجتماعية إلى مستوى واحد ، وحتى إن نجحوا فى ذلك لسوء حظهم ، وبلغوا تلك الدرجة من المساواة المطلقة الكاملة من حيث المراكز ، فسيظل تفاوتهم فى القوى العقلية وفى المواهب الطبيعية قائماً لا يزول بالضرورة ، لأنه تفاوت من صنع الله مباشرة ، ولذلك سيبقى أبداً غير خاضع لقوانين البشر . فمهما كانت حالة الشعب الاجتماعية وحالة نظامه السياسى ديمقراطية ، فلا شك أن كل فرد فى المجتمع سيجد حوله عدة مواضع يغفل فيها مركزه الخاص ، وإنا لنستطيع أن نتنبأ بأنه سيوجه بصره شطر ذلك الاتجاه ويركزه فيه . فعندما يكون التفاوت فى الأحوال الاجتماعية قانوناً غالباً على المجتمع فإن أبرز أنواع التفاوت الصارخة التى بين الناس لا تسترعى الأنظار ؛ أما إذا كان كل شىء فى مستوى واحد تقريباً فأدنى تفاوت يلفت النظر ، فتقذى به العيون ، ومن ثم كانت الرغبة فى المساواة تزداد نهماً وقوة ، كلما ازدادت المساواة قرباً من الكمال .

من السهل على الناس فى الأمم الديمقراطية أن يصلوا إلى مستوى واحد من حيث أحوالهم الاجتماعية. ولكنهم لن يبلغوا منها أبداً القدر الذى يطمعون فيه. فسيظل هذا المستوى يتراجع أمامهم على الدوام رغم أنه لايخفى نفسه عن أبصارهم. ويحرهم معه فى تراجعه هذا. وبذلك لايبرحون يظنون أنهم على وشك اللحاق به. ولكنه يفلت منهم فى كل لحظة ويبعد عن متناول أيديهم: فهم قريبون منه القرب الذى يتيح لهم أن يدركوا ما به من مفاتن تأخذ بألبابهم، وبعيدون عنه البعد الذى يحول بينهم وبين الاستمتاع به، فقبل أن ينعموا بتذوقه ويتملوا به إذا بالأجل المحتوم يوافيهم.

ويجب أن نعزو إلى هذه الأسباب نفسها، تلك «السوداوية» الغريبة التى كثيراً ما تعترى أهل البلاد الديمقراطية، على الرغم مما هم فيه من رخاء. كما يجب أن نعزو إليه كذلك هذا التبرم بالحياة الذى يخيم عليهم فى بعض الأحيان وسط ما هم فيه من أحوال هادئة ميسرة. فكثيراً ما يشكو الناس فى فرنسا من ازدياد حوادث الانتحار فيها، على حين أن الانتحار فى أمريكا قليل، ولكن المعروف أن الجنون فيها أكثر مما فى غيره من البلاد. وهذه كلها أعراض شتى لمرض واحد بعينه. فالأمريكيون لايقضون على حيواتهم بأيديهم مهما بلغ بهم القلق والاضطراب، لأن دينهم يحرم عليهم ذلك. هذا، ويندر أن يكون للمادية أى أثر فيهم على الرغم من ولعهم بالملذات الحسية، إن الإرادة قد تقاوم ولكن العقل كثيراً ما يستسلم.

فالمتع الحسية فى العصور الديمقراطية أشد كثيراً مما فى العصور الأرستقراطية، كما أن عدد الذين يشاركون فى الاستمتاع بها أكثر كل الكثرة. إلا أننا، من جهة أخرى، لايسعنا إلا التسليم بأن آمال الإنسان ورغباته كثيراً ما تفشل، وتصبح روحه أشد مرضاً واضطراباً، وهمومه أحد وأنكى.

الفصل الرابع عشر

الأمريكيون يجمعون بين الميل إلى الملذات الحسية ومحبة الحرية وبين العناية بالشئون العامة فى أمريكا

عندما تتحول دولة ديمقراطية إلى ملكية مطلقة، يحدث فيها ازدهار مادى عظيم يظل قائماً فترة من الزمن؛ لأن النشاط الذى كان موجهاً من قبل إلى العناية بالشئون العامة وإلى المصالح الخاصة يتجه كله دفعة واحدة إلى المصالح الشخصية وحدها ويتركز فيها، ولكن سرعان ما يتراخى هذا النشاط ويفتر، ويقل الإنتاج. ولست أدرى إن كان من الميسور ذكر اسم شعب واحد تجارى أو صناعى، من أول الفينيقيين إلى الفلورنسيين (الإيطاليين) والإنجليز، لم يكن شعباً حراً. فلابد أن يكون ثمة صلة وثيقة وضرورية إذن بين هذين العنصرين، الحرية والصناعة الإنتاجية.

وهذه قضية تصدق حقاً على الأمم كلها بعامة، وعلى الديمقراطية بخاصة. وقد أوضحت فيما سلف أن الناس الذين يعيشون فى عصور المساواة بحاجة دائمة إلى تكوين الجمعيات كى يستطيعوا أن يحصلوا على رغباتهم، كما أوضحت كذلك، أن الحرية السياسية الواسعة تؤدى إلى ترقية هذا الفن (فن تكوين الجمعيات) ونشره. فالحرية تعاون إذن فى هذه العصور بوجه خاص على زيارة الإنتاج ومن ثمَّ الثروة، ومن السهل علينا أن ندرك كذلك أن الاستبداد يؤدى، بوجه خاص، إلى نقيض هذه النتيجة.

ليس من طبيعة السلطة الاستبدادية أن تكون عنيفة ولا قاسية فى العصور الديمقراطية، وإنما هى دقيقة، وكثيرة التدخل فى كل شىء. فكل استبداد من هذا الطراز، على الرغم من أنه لا يبطش بالإنسانية ولا يطؤها بالأقدام، لا يتفق مع روح التجارة والصناعة، بل يناقضها تمام المناقضة.

فالناس فى العصور الديمقراطية بحاجة دائمة إلى أن يكونوا أحراراً حتى يتيسر لهم الحصول على تلك المتع الحسية التى يتطلعون إليها باستمرار. هذا وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يندفع بهم ميلهم المفرط إلى هذه المتع، إلى أن يستسلموا لأول سيد يظهر فيهم، ففرامهم بالرفاهية غرام يقضى على نفسه بنفسه إذن، ويبعدهم على غير وعى منهم عن الرغبة التى يسعون وراء تحقيقها، مسافات بعيدة.

لاشك فى أن ثمة مأزقاً خطراً كل الخطر فى حياة الشعوب الديمقراطية فإذا ما ازداد الميل فى شعب منها إلى الملذات الحسية بأسرع من انتشار التعليم بين أفراده، أو من ازدياد خبرتهم بالمؤسسات الحرة، فسرعان ما يأتى عليهم وقت يندفعون فيه فى تهور ورعونة عند مرأى الأموال والخيرات الجديدة التى يتلهفون فى الاستيلاء عليها. ففى تلهفهم الشديد الطاغى على جمع المال يغفلون عن إدراك الصلة الوثيقة التى بين الثروة الشخصية التى يملكها كل منهم وبين ازدهار المجموع ورخائه. فليس ثمة حاجة إلى العنف مع مثل هؤلاء المواطنين لتجريدهم مما يتمتعون به من حقوق فإنهم سيدعونها هم أنفسهم تفلت من أيديهم. إذ يبدو لهم أن ممارسة الواجبات السياسية العامة عقبة كأداء تقوم فى سبيل استمرارهم فى رعاية مصالحهم وأعمالهم الخاصة. فإن كان المطلوب منهم أن ينتخبوا نواباً عنهم، وأن يساندوا الحكومة القائمة بما يقدمونه من خدمات شخصية، وأن يتجمعوا من أجل خدمة عامة ظنوا أنهم لا وقت عندهم يسمح لهم بشىء من ذلك؛ فهم يضنون بإنفاق ساعات فراغهم الثمينة فى المشاركة فى أمور لا جدوى منها لهم. فهذه هى الملاهى الفارغة فى نظرهم التى لا تصلح للرجال الجادين غير الهازلين المشتغلين بما هو أخطر منها فى شئون الحياة. فيخيل إليهم إنما يتبعون قانون المنفعة الشخصية، ولكن فكرتهم عن هذا القانون فجة كل الفجاجة، فكى يوجهوا عنايتهم إلى ما يسمونه مصالحهم، يغفلون أهم مصلحة فيها - وهى أن يظلوا هم سادة أنفسهم.

فلما كان المواطنون الذين يكدحون لكسب رزقهم لا يحفلون بالشئون العامة، وكانت الطبقة التى يتسنى لها أن توجه ما لديها من أوقات الفراغ إلى أداء هذه الواجبات لم تعد موجودة، فقد أصبح مركز الحكومة أشبه بالشاغر. فإن حدث فى مثل هذا الوقت الحرج أن هب شخص طموح قدير واستولى على أزمَّة السلطة العليا فى البلاد لوجد الطريق إلى كل أنواع الاغتصاب مفتوحة أمامه[1]. فإن وجه اهتمامه برهة فحسب إلى ازدهار الدولة المادى فقد يعتقد أنه لم يعد بعد ذلك مطالباً بشىء قبل الدولة، فعليه قبل أى شىء آخر أن يكفل لها استقرار النظام والهدوء. فالناس الذين طغى عليهم الميل إلى المتعة الحسية يجدون عادة أن ضجيج الحرية يعكر عليهم صفو سعادتهم، وذلك قبل أن يدركوا أن الحرية هذه إنما تعمل على توفير السعادة المنشودة لهم؛ فهم يفزعون من أقل شائعة عن حدوث اضطرابات عامة تعطلهم عن ملذاتهم الصغيرة فى حياتهم الخاصة. فإذا كان الخوف من الفوضى يساورهم على الدوام، فقد صاروا دائماً مستعدين لأن ينبذوا حريتهم ظهرياً عند حدوث أول اضطراب.

لست أتردد بالطبع فى التسليم بأن استقرار السلام العام خير عظيم، ولكنى لا أنسى، مع ذلك، أن جميع الأمم إنما رزحت تحت نير الاستعباد، باسم إقرار النظام العام. وليس

(١) يغلب على الظن أن المؤلف كان يفكر وقتئذ فى يوم ١٨ برومير الشهير، الذى فيه قلب نابوليون حكومة الإدارة وجمع أزمَّة الحكم كلها فى يديه. وذلك عقب عودته إلى فرنسا من مصر.

من شك فى أن هذا لايؤدى بنا إلى استنتاج أن الأمم يجب أن تستهين بأمر استقرار النظام العام، بل عليها ألا تجتزىء به وحده وتقنع. فالأمة التى لاتطالب حكومتها إلا بالسهر على الأمن والنظام، أمة مستعبدة فى الواقع فى ذاتها، فهى لاتعدو أن تكون عبدة لرفاهيتها، وفى انتظار الرجل الذى سيكبلها بالأغلال.

هذا، وإن خوف مثل هذه الأمة من أن تستبد بها طائفة ما، لايقل عن خوفها من أن يطغى عليها ويبطش بها فرد واحد. فعندما تكون الكثرة من المواطنين منهمكين فى رعاية مصالحهم الخاصة وحدها، فليس لحزب من أحزابها الصغيرة أن ييأس من أن تقع السلطة كلها فى يديه. ففى مثل هذه الأيام، ليس نادراً أن نرى على مسرح الحوادث العالمية الفسيح، كما نراه على مسارحنا، جمهوراً عظيماً من الناس يمثله عدد صغير من الممثلين الذين يتحدثون وحدهم باسم حشد من الناس غائب أو غافل؛ فهؤلاء وحدهم هم الذين يعملون، على حين يظل سائر الناس جامدين لاينشطون. فهم يديرون دفة البلاد وعاداتها الأخلاقية كما يحلو لهم. وعندئذ يحق لنا أن نعجب من أن نرى شعباً عظيماً يقع بين براثن فئة قليلة من أفراد ضعاف، تافهين، غير جديرين بشىء.

لقد كان من حسن حظ الأمريكيين أنهم أفلتوا إلى اليوم من جميع تلك الأخطار التى أشرت إليها. فهم من هذه الوجهة جديرون حقاً بكل إعجاب، وقد لايوجد فى العالم كله بلد به من الكسالى أقل ممن يوجدون فى أمريكا حيث جميع الذين يشتغلون أكثر تلهفاً على تحسين أحوالهم والسعى وراء رفاهيتهم. ولكن، إن كانت حماسة الأمريكيين للاستمتاع بالملذات الحسية عنيفة، فهى ليست على الأقل، عمياء، فاقدة التمييز، ومع أن العقل قد عجز عن أن يكبح هذه الحماسة فيهم، فإنه يوجهها ويرشدها.

يقبل الأمريكى على العناية بشئونه وأعماله الخاصة، كما لو كان لايوجد فى هذا العالم كله أحد سواه، ثم إذا به فى لحظة تالية ينكب على الشئون العامة يعنى بها، كما لو كان قد نسى كل مصالحه الشخصية تلك. ففى وقت ما تحفزه أطماع طاغية كلها أنانية، وإذا به فى وقت آخر يبدو لك مدفوعاً بأشد أنواع الوطنية حدة وأكثرها توقداً. ولكن القلب البشرى لايمكن أن ينقسم على نفسه مثل هذا الانقسام، فسكان الولايات المتحدة يظهرون على الولاء غراماً قوياً برفاهيتهم وبالحرية معاً، حتى ليخيل إلينا أن هاتين الشهوتين قد اتحدتا فى موضع ما من نفوسهم. والواقع أنهم يعتقدون أن حريتهم خير أداة وأعظم كفيل لرفاهيتهم هذه. فهم يحبون هذين الأمرين الواحد من أجل الآخر، ولا يفكرون إذن فى أنهم غير مطالبين بالمشاركة فى الشئون العامة، بل على النقيض من ذلك، يعتقدون أن شغلهم الرئيسى أن يحصلوا لأنفسهم على حكومة تتيح لهم المجال للحصول على الخيرات والأموال التى يطمحون إليها ولا تحول بينهم وبين أن يستمتعوا فى سلام بتلك التى حصلوا عليها من قبل.

الفصل الخامس عشر

العقائد الدينية توجه أفكار الأمريكيين نحو المتع الروحية من آن لآخر

فى اليوم السابع من كل أسبوع تتعطل الأعمال الصناعية والتجارية فى طول البلاد الأمريكية وعرضها، فتمتنع كل ضوضاء، ويعقب حركة الأسبوع وضجيجها سكون عميق. وإن شئت قلت يعقبها نوع من التأمل والخشوع، فتنطوى فيه الذات على نفسها تتأمل ما يجرى فيها. ففى هذا اليوم تقفر الأسواق ويمضى كل مواطن مع أسرته إلى بيت من بيوت الله، حيث يستمع إلى خطبة عجيبة تبدو غريبة على أذنه؛ فيحدثه الخطيب عن الشرور الكثيرة الناجمة عن الكبرياء وعن الطمع. ويذكره بضرورة كبح رغباته، وبالمتع السامية التى من خصائص الفضيلة وحدها. وبالسعادة الحقة التى ترافقها. وعندما يعود إلى بيته، لاينكب على دفاتر أشغاله، بل على الكتاب المقدس. حيث يجد أوصافاً جليلة مؤثرة لعظمة البارىء وكرمه ولفخامة خليقته التى لانهاية لها، ولما هو مقدر للإنسان من مصائر عظيمة، وما عليه من واجبات وما له من حق فى الخلود.

وهكذا نرى الأمريكى قد يختلس من نفسه ساعة فى بعض الأحيان، فيهمل فترة من الزمن تلك الشهوات الصغار التى تستثير حياته، وتلك المصالح الزائلة التى تستغرق كل جهوده، ويندفع فوراً إلى عالم مثالى فيه كل جليل، وأزلى، صاف.

حاولت أن أبحث فى موضوع آخر من هذا الكتاب عن العوامل التى ينبغى أن نعزو إليها صيانة المؤسسات السياسية الأمريكية، وبدا لى فيه أن الدين سبب من أبرز تلك الأسباب. والآن وأنا معنى بالأفراد، أجد أن الدين لايقل نفعاً لكل مواطن على حدة عنه للدولة فى جملتها. ويبدى الأمريكيون فى أمورهم العملية أنهم يشعرون بضرورة صبغ الجماعات الديمقراطية بصبغة أخلاقية مستمدة من الدين. فهذا الذى يرونه أمراً خاصاً بهم فى هذا الصدد إنما هو حقيقة يجب أن تتشبع به كل أمة ديمقراطية.

ولا يساورنى أى شك فى أن تكوين الشعب الاجتماعى والسياسى قد يحدو بهم إلى الأخذ بمعتقدات معينة، وإلى تكوين ميول معينة، تنتشر بينهم فيما بعد فى غير مشقة، وقد

تبعدهم هذه الأسباب نفسها عن بعض آراء وميول أخرى من غير أن يبذلوا أى جهد مقصود فيها، ومن غير أن يكونوا متفطنين إليها تفطناً صريحاً (إن جاز لنا هذا التعبير). إن فن المشترع كله لايعدو أن يستشف سلفاً، وعلى نحو صحيح، ميول الشعب الطبيعية هذه، كى يعرف إن كان الواجب عليه أن يغذيها ويقويها، أم أن الضرورة تقتضيه أن يكبحها. فالواجبات الملقاة على عاتق المشترع تختلف باختلاف الأوقات، على حين أن الهدف الذى يجب أن يتجه إليه الجنس البشرى كله دائماً ثابت لايتغير، وإن كانت الوسائل المؤدية إلى تحقيقه تتغير باستمرار.

فلو أنى ولدت فى عصر أرستقراطى، بين ظهرانى أمة فيها الثروة التى يحصل عليها بعض الناس عن طريق الميراث، وفيها يعانى البعض الآخر الفقر المدقع الذى لاعلاج له، وقد حالا كلاهما - الثراء والفقر - بين الناس وبين قيام فكرة العمل على تحسين أحوالهم الاجتماعية، واستبقيا الروح فى حالة خمول وتركز همها كله فى التأمل فى أمور الآخرة وحدها - لو أنى ولدت فى مثل هذه الأحوال لوددت أن يتاح لى أن أوقظ هذا الشعب وأمثاله إلى الشعور باحتياجاته، بأن أمضى فى البحث عن وسائل أسرع وأسهل لسد حاجاته الجديدة التى قد أيقظتها هكذا فى نفوس الناس، ولعملت عن طريق توجيه أعظم جهود المواطنين وأعنفها، إلى السعى وراء الأمور المادية ولبذلت جهودى فى أن أحثهم على السعى وراء ما فيه سعادتهم هم الخاصة. فإن حدث أن مال بعضهم هكذا إلى الإفراط فى السعى وراء جمع المال، وصاروا بذلك يبدون ميلاً مفرطاً إلى الانهماك فى الملذات الحسية - فذلك لايفزعنى بحال من الأحوال، فلسوف تذوب هذه الحالات الخاصة وتختفى وسط الملامح العامة التى فى الجماعة كلها.

للمشترعين فى البلاد الديمقراطية شئون أخرى عليهم أن ينتبهوا إليها ويهتموا بها، فالأمم الديمقراطية لها التعليم والحرية ثم ندعها وشأنها. فسرعان ما يتعلم أهلوها أن يحصلوا من هذه الدنيا على كل ما تستطيع أن تقدمه إليهم من منافع، وسيعملون على تحسين كل فن من الفنون النافعة، ويجعلون الحياة كل يوم أروح وأيسر وأنسب مما كانت. وستدفعهم حالتهم الاجتماعية بطبيعة الحال إلى السير قدماً فى هذا الاتجاه، ولا أخشى عليهم أن يتباطئوا فيه.

ولكن بينما يكون الإنسان مغتبطاً مسروراً بسعيه الشريف المشروع هذا، وراء كل ما فيه سعادته، يخشى عليه أن يفقد قدرته على استخدام أسمى ما فيه من ملكات، وينتهى به الأمر إلى أن يحط من شأنه نفسه، وهو يحاول العمل على تحسين كل ما حوله، وهنا موضع الخطر. ومن ثم وجب على المشترعين فى البلاد الديمقراطية وعلى جميع من فيها من الفضلاء المستنيرين أن يعملوا، فى غير هوادة، على السمو بنفوس المواطنين كلهم، وعلى توجيههم نحو الله. فيجب أن يتحد جميع من تهمهم مصائر المجتمع الديمقراطى ويبذلوا جهوداً جماعية متصلة لينشروا بين الناس محبة الأمور السامية واللانهائية، والميل إلى المتع المتاحة

الحلال غير المادية. فإن حدث وكان بين الآراء الذائعة فى الشعب الديمقراطى شىء من هذه النظريات الخبيثة التى تهدف إلى جعل الناس يعتقدون أن كل شىء سيفنى بفناء الجسم، وجب علينا أن نعد القائلين بهذه النظريات أعداء الشعب الطبيعيين.

هذا، وثم أمور أخرى تجعلنى أنفر من الماديين؛ فنظرياتهم ضارة، فى اعتقادى، وقحتهم تثير الاشمئزاز فى نفسى. فإن كان فى نظامهم أية فائدة لبنى الإنسان، فهى أنهم يعطونه فكرة متواضعة عن نفسه، لكنهم لايظهرون لنا أن الأمر كذلك، فعندما يخيل إليهم أنهم قالوا ما فيه الكفاية للتدليل على أنهم من السوائم، إذا بهم يبدون لنا فى كبرياء واستعلاء، كما لو كانوا قد برهنوا لنا على أنهم من الآلهة.

فالناس فى جميع الأمم يعدون المادية مرضاً خطيراً من أمراض العقل البشرى، وخطر هذا المرض فى البلاد الديمقراطية أشد منه فى غيرها، لأن المادية سرعان ما تندمج فى تلك الرذيلة التى يعرفها القلب حق المعرفة، فى تلك الظروف. فالديمقراطية تشجع ميول الناس على إرضاء مطالب الجسد؛ فإن هم انساقوا مع هذه الميول وأسرفوا فيها، فسرعان ما يتجهون إلى الاعتقاد بأن كل شىء فى هذا العالم لايعدو أن يكون مادة؛ وتسوغ لهم المادية أن يندفعوا اندفاعاً جنونياً وينكبوا على انتهاب الملذات الحسية. تلك هى الدائرة الخبيثة التى نجد الأمم الديمقراطية تندفع إلى أن تحوم حولها. فمن الخير لهذه الأمم إذن أن ترى الخطر المحدق بها حتى تكف نفسها عن الاتجاه إليه.

إن غالبية الأديان وسائل عامة بسيطة وعملية لتعليم الناس مذهب خلود الروح. فهذه هى أكبر فائدة يستمدها الشعب الديمقراطى من اعتقاده. ومن ثم كان، الاعتقاد ألزم لهذه الشعوب منه لغيرها. فإن تأصلت جذور الدين ورسخت عميقة فى شعب ديمقراطى، فحذار من أن تزعزعوها، بل الأولى بكم أن تراقبوها بعناية، فهى خير ميراث تلقيناه من العصور الأرستقراطية. فيجب ألا تعملوا على إبدال آراء الناس الدينية القديمة بأخرى جديدة، خشية أن يتركوا الروح فترة من الزمن من غير اعتقاد فى فترة الانتقال من القديم إلى الجديد، فتغلب عليها إذن محبة المتع الحسية المادية وتملأ كل جوانبها.

هذا ولا شك فى أن مذهب القائلين بتناسخ الأرواح ليس معقولاً بأكثر من مذهب الماديين، ومع ذلك فإن كانت الضرورة المطلقة تقتضى الديمقراطية أن تختار بين هذين المذهبين فلست أتردد مطلقاً فى القول بأن مخاطرة المجتمع أن يصبح بهيمياً باعتقاده أن روح الإنسان قد تنتقل إلى جثة خنزير لأقل مخاطرة من اعتقاده أن روح الإنسان ليست شيئاً مطلقاً. فالاعتقاد بوجود مبدأ روحانى فوق الحس، وخالد، إذا ما اتحد فترة معينة من الزمن مع المادة، لاغنى عنه لعظمة الإنسان؛ فنتائجه ستكون رائعة كل الروعة إذا لم يقترن بمبدأ الثواب والعقاب. أو كان هذا المبدأ لايقول بأكثر من أن المبدأ الإلهى الذى فى الإنسان سيعود إلى الله ريندمج فيه، أو ينتقل إلى جثمان مخلوق آخر، أيّا كان هذا

المخلوق ، فيفيض عليه الحياة . إن الذين يؤمنون بمثل هذا المذهب الناقص لا يزالون يعدون الجسم هو الجانب الثانوى الوضيع من طبيعتهم ، بل إنهم يزدرونه حتى عندما يذعنون لمطالبه على حين أن لديهم احتراماً طبيعياً ، وإعجاباً جلياً بالجانب غير المادى من الإنسان ، وإن كانوا يأبون أحياناً أن يذعنوا لسلطانه . ففى هذا ما يكفى لأن يجعل لآرائهم وليولهم صفات سامية ، ويجعلهم يتجهون من تلقاء أنفسهم نحو الوجدانات الطاهرة والأفكار السامية من غير أن يكون لديهم دافع من أية مصلحة شخصية .

لسنا نعرف على وجه اليقين ، إن كان لدى سقراط وأتباعه أية آراء محددة ثابتة عما قد يحل بالإنسان فى الآخرة ؛ ولكن النقطة الوحيدة فى اعتقادهم التى استمسكوا بها كل الاستمساك ؛ وهى أن الروح لا تشترك فى شىء مع الجسم ، وأنها تظل حية بعد فنائه ، كان فيها ما يكفى لمنح الفلسفة الأفلاطونية ذلك الطموح السامى الذى تميزت به كل سائر الفلسفات .

ويتضح من مؤلفات أفلاطون أن كثيرين من الكتاب الفلاسفة ، سواء كانوا من معاصريه أو ممن تقدموه ، يؤمنون بالمادية ، ولكن لم يصلنا شىء مما كتبوه ؛ أو بعبارة أدق لم يصلنا منه سوى شذرات قليلة . وهذا ما يحصل فى كل عصر من العصور تقريباً ، فالكثرة الكبرى من مشاهير الأدباء يتشبثون بمذهب من مذاهب الفلسفة الروحية . ففطرة الجنس البشرى ونزعاته تتعلق بهذه المذاهب الروحية ، فهى كثيراً ما تنجيهم ، على الرغم منهم ، وترفع أسماء المدافعين عنها مكاناً عليا فوق تصاريف الزمن . فيجب ألا يتوهم أحد إذن أن غرام الناس بإرضاء حاجاتهم الجسمية والمادية فى أى عصر ، وتحت أى شكل من أشكال الحكم السياسية ، والآراء التى يؤدى إليها هذا الغرام ، يمكن أن ترضى شعباً بأسره . إن قلب الإنسان لأكبر من ذلك ، فهو يتسع للميول إلى الأمور الدنيوية ؛ وللنواحى الدينية معاً ، وفى وقت واحد . وقد يبدو أحياناً أنه يتشبث بناحية واحدة منهما كل التشبث ، ولكنه لا يلبث طويلاً حتى يعود ويفكر فى الناحية الأخرى .

إن كان من السهل أن ندرك أنه من الأهمية بمكان أن تنتشر الآراء الروحية فى العصور الديمقراطية بوجه خاص ، فليس من السهل أن نحدد الوسائل التى يستطيع بها أولو الأمر فى هذه الأمم جعل هذه الآراء تسود . فلست من الذين يعتقدون بازدهار الفلسفات الحكومية ولا ببقائها . أما من حيث الأديان الرسمية فقد كان اعتقادى دائماً أنها ، وإن كانت تخدم مصالح السلطة السياسية فى بعض الأحيان ، خدمة مؤقتة ، فستصبح إن عاجلاً أو آجلاً خطراً عظيماً على الكنيسة . ولا أنا أوافق الذين يرون أنه من المرغوب فيه أن نمنح ، بطرق غير مباشرة ، خدام الدين أى نفوذ سياسى تأباه عليهم قوانين البلاد ، بقصد رفع مكانة الدين فى نظر الشعب ، وجعلهم يحترمون مذاهب الكنيسة ويكرمونها . وإنى لأشعر كل الشعور بالأخطار التى تكاد تكون محتومة ، والتى تحدق بالمعتقدات الدينية

عندما يشترك رجال الكنيسة فى الشئون العامة ؛ وإنى لمقتنع كل الاقتناع بأن الدين يجب أن يصان بأى ثمن فى قلب البلاد الديمقراطية حتى أنى لأوثر أن أرى رجال الدين محتكفين فى بيوت الله على أن يسمح لهم بتجاوزها .

فما الذى يتبقى إذن فى أيدى أولى الأمر من الوسائل التى تمكن لهم من أن يعيدوا الناس إلى الإيمان بالآراء الروحية أو ليجعلوهم يتشبثون كل التشبث بالدين الذى يوحى إليهم بها ؟

إنى أخشى أن تكون إجابتى عن هذا السؤال مما تؤذينى فى عيون السياسيين ، فإنى أعتقد أن الوسيلة الوحيدة الناجحة التى تستطيع الحكومات أن تستخدمها ، لوضع مبدأ خلود الروح فى المكانة التى تتيح له ما يليق به من احترام - هذه الوسيلة هى أن تسلك (هذه الحكومات) دائماً كما لو كانت هى نفسها تؤمن بهذا المبدأ ؛ وفى اعتقادى أن الحكومات لا تستطيع أن تأمل أن تعلم الجماعة فى جملتها أن تعرفه وتحبه وتراعيه فى الشئون الصغرى من شئون الحياة ، إلا بأن تحرص كل الحرص على مراعاة الأخلاق الدينية فى الشئون الكبرى منها .

الفصل السادس عشر

الإفراط فى الاهتمام بالسعادة الدنيوية قد يؤدى إلى إضعافها

بين العمل على ترقية الروح والعمل على ترقية كل ما يتعلق بالجسم، صلة وثيقة، أوثق مما يظنه الناس عادة، فقد يترك المرء هذين الأمرين منفصلين بعضهما عن بعض ثم يواجه كلا منهما على حدة، وعلى الولاء. ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يفصلهما فصلاً تاماً من غير أن يؤدى ذلك إلى اختفاء الاثنين عن نظره فى النهاية.

إن للحيوان ما لنا من الحواس تماماً، كما أن له نفس ما لنا من «شهوات»، فليس ثم «شهوات» جثمانية عامة فى الإنسان وليست عامة فى الحيوان، كذلك، فما توجد بذوره منها، على الأقل، فى القطط توجد فى بنى الإنسان كذلك، فكيف حدث أن صار الحيوان إذن لا يستطيع أن يرضى غير احتياجاته الأولية على حين استطاع الإنسان أن ينوع مسراته ويزيدها تنوعاً وزيادة لا تقفان عند حد ؟

إن ما يجعلنا نتفوق على الحيوان هو أنا نستخدم عقولنا فى الحصول على المنافع المادية التى توجهه إليها غرائزه وحدها. فالملك يقوم بتعليم الجانب الحيوانى من الإنسان فن إرضاء غرائزه ومشتهياته. فمن أجل أن الإنسان قادر على أن يسمو على مطالب الجسد، وقادر على احتقار الحياة ذاتها -وهو ما ليس عند الحيوان أقل ذرة منه- صار فى مقدرته أن يضاعف تلك الأشياء نفسها المتعلقة بالجسم لدرجة لا يستطيع ما دون الجنس البشرى من أجناس تصورها.

فكل ما يسمو بالروح، وينميها، ويوسعها، يزيدها قدرة على النجاح حتى فى المشروعات التى لا تخصها فى قليل أو كثير. ومن جهة أخرى، فكل ما يقلل من قوتها أو يحط من قدرها، يضعفها عن أداء كل غرض من الأغراض، كبيرها وصغيرها، ويهدد بجعلها عاجزة عن القيام بأى منهما تقريباً. ومن ثم وجب أن تظل الروح عظيمة وقوية حتى ولو كانت لا توجه قوتها وعظمتها من حين إلى حين إلا إلى خدمة الجسد وحده. فإن حدث وقنع الناس بالأغراض المادية وحدها، فمن الجائز أن يخسروا تدريجياً القدرة على إنتاجها، فينتهى بهم الأمر أن يستمتعوا بها من غير أى تمييز، ومن غير أى تحسين فيها، شأنهم فى ذلك شأن الحيوان.

الفصل السابع عشر

من الأهمية بمكان أن يتجه النشاط الإنسانى إلى الغايات البعيدة المدى عندما تتساوى الأحوال الاجتماعية وينتشر التشكك بين الناس

فى عصور الإيمان يقوم هدف الحياة الأقصى فيما وراء هذه الحياة، فلا غرو أن كان أهل هذه العصور يعودون أنفسهم بطبيعة الحال، بل وعلى غير إرادة منهم تقريباً، على أن يظلوا يوجهون أنظارهم سنوات كثيرة إلى شىء ثابت يجعلونه نصب أعينهم على الدوام، فهم يتعلمون تدريجياً، وبشكل غير محسوس، أن يكفوا أنفسهم عن طائفة من الرغبات الصغيرة العابرة كى يتيسر لهم بطريقة أوفى إرضاء تلك الرغبة العظمى الدائمة التى تمتلكهم، وعندما يشتغل هؤلاء الناس بشئون هذه الحياة الدنيا تتجلى هذه العادات ذاتها فى سلوكهم، فيقيمون لأنفسهم فى هذه الحياة هدفاً عاماً معيناً يوجهون إليه كل أفعالهم؛ فهم لا يسعون كل يوم وراء رغبة جديدة، بل إن لهم لمقاصد معينة ومحدودة لا يملون أبداً من السعى وراءها.

وهذا يفسر لنا السبب فى أن الأمم المتدينة كثيراً ما تنجز أعمالاً تبقى على الزمان، فبينما الناس فيها يفكرون فى شئون الآخرة إذا بهم يقفون على سر النجاح العظيم فى هذه الدنيا. فالأديان تعود الناس عادة عامة فتجعلهم يسيرون فى أعمالهم ونصب أعينهم فكرة الدوام والخلود لاتفارقهم، فهم من هذه الوجهة، ليسوا أقل نفعاً للسعادة فى هذه الدنيا منهم لها فى الآخرة؛ وتلك ميزة من أهم ميزاتهم السياسية.

ولكن كلما خبا نور الإيمان فى الإنسان قصر مدى نظره، فكأنما غاية هذا الإنسان تزداد كل يوم قرباً من متناوله. فحينما يعتاد الناس ألا يفكروا فيما سيحل بهم فى الحياة الأخرى، فإنهم لا يلبثون أن يرتدوا بسرعة، وبشكل غريب، إلى عدم المبالاة بما سيأتيهم به المستقبل، وهذا اتجاه يتفق كل الاتفاق مع النزعات البشرية، كما لا يخفى، فعندما لا يعود

الناس يعلقون آمالهم الكبار بأهداف بعيدة المدى فإنهم يسارعون بالطبع إلى إرضاء أحط رغباتهم، فما أن يستولى عليهم اليأس من أن يعيشوا إلى الأبد حتى يتجهوا إلى أن يعملوا وكأنهم سيموتون غداً. ففى عصور التشكك يخشى من أن يستسلم الناس دائماً إلى رغباتهم اليومية العارضة ويبتعدوا عن السعى وراء كل شيء لا يمكن الحصول عليه إلا بعد مجهود طويل متصل؛ وبذلك لا ينشئون شيئاً عظيماً باقياً وهادئاً.

فإن أصبحت أحوال مثل هذا الشعب الاجتماعية ديمقراطية فى هذه الظروف ازداد ذلك الخطر الذى أشرت إليه واشتد. فعندما يظل كل امرىء يسعى باستمرار وراء تغيير مركزه؛ وعندما يكون ميدان المنافسة واسعاً كل السعة ومفتوحاً لكل من شاء أن يلجه؛ وعندما تجمع الثروات وتنفق بين عشية وضحاها وسط ضجيج الديمقراطية وصخبها؛ عندما يكون الحال على هذا النحو داعبت عقول الناس رؤى وأحلام عن ثروات مفاجئة تهبط عليهم من السماء، فتأتى بسهولة وتضيع كذلك بسهولة. هذا، وإن عدم استقرار المجتمع نفسه، ليساعد على اضطراب رغبات الإنسان وعدم استقرارها الطبيعى فيه. وعندئذ يبدو لهم الحاضر وسط هذا التذبذب الدائم فى حظوظهم شيئاً عظيماً، يغشى المستقبل ويخفيه عن العيون، فلا يعودون يفكرون إلا فى غدهم فحسب.

ففى البلاد التى يجتمع فيها، لسوء الحظ، الزندقة والديمقراطية ينبغى للفلاسفة ولأولى الأمر الذين بيدهم الحكم أن يعملوا باستمرار ما فى وسعهم كى يجعلوا أهداف أعمال الإنسان أهدافاً بعيدة، وراء دائرة أفقهم المباشر، فتلك مهمتهم الكبرى. فإذا راعى العالم الأخلاق روح بلاده وروح عصره عرف كيف يدافع عن اتجاه مبادئه. عليه ألا يألو جهداً فى أن يوضح لمعاصريه، حتى وهم وسط تلك الحركة الدائبة التى تجرى حولهم أنهم يستطيعون فى يسر أكبر مما يظنون، أن يتصوروا وينفذوا مشروعات طويلة الأجل. وعليه أن يوضح لهم كذلك أنه مهما تغيرت ملامح البشر، وتبدل مظهرها، فالطرق التى يستطيع بها الناس أن يعملوا لما فيه سعادتهم فى هذه الدار الدنيا لا تزال هى هى. ولا يستطيع الإنسان فى الأمم الديمقراطية، ولا فى سواها أن يرضى ما فيه من شهوة عارمة متأججة إلى السعادة، إلا بجهاد متصل دائب يبذل ضد الشهوات الصغيرة الخاصة الكثيرة العدد التى تعتلج فى نفسه.

هذا، وليس واجب الحكم هنا بأقل من ذلك وضوحاً ولا تحديداً. فمن الأهمية البالغة فى كل عصر من العصور، أن يجعل الذين بيدهم حكم الشعوب المستقبل نصب أعينهم دائماً، وهذا ألزم فى عصور الديمقراطية والتشكك منه فى أى عصر آخر. فإذا ما سلك الزعماء فى البلاد الديمقراطية هذا المسلك لم يجعلوا الشئون العامة تزدهر فحسب، بل إنهم ليعلمون بقدوتهم الطيبة، الأفراد العاديين فن إدارة شئونهم الخاصة.

وعليهم قبل كل شيء أن يعملوا ما فى وسعهم لاستبعاد عنصر المصادفة من ميدان

السياسية. فترقية أحد رجال البلاط غير الأكفاء ترقية فجائية لاتحدث إلا أثراً عابراً (فى البلاد الأرستقراطية) لأن جملة المؤسسات والمعتقدات التى فى الأمة تحمل الناس عادة على أن يتقدموا فى تؤدة وبطء فى المسالك التى لايستطيعون أن يحيدوا عنها أو يفادوها. ولكن لاشيء أبلغ ضررا من حدوث مثل هذه الأمور، القائمة على المحسوبية، فى شعب ديمقراطى، فهى تعجل بدفع ميول هذا الشعب بقوة إلى أن ينزلق فى منحدر كل شيء كان يعمل على أن يجره ليهوى فيه. ففى عصور التشكك والمساواة بوجه خاص، يجب أن نحرص كل الحرص على تجنب إحلال محسوبية الشعب أو محسوبية الحاكم التى قد يحظى بها المرء مصادفة، أو يحرمها كذلك، أن تحل أبدا محل العلم ومؤهلاته أو محل الخدمات الثابتة. فمن المرغوب فيه أن كل ترقية -يجب أن تبدو أنها جاءت ثمرة مجهود بذل وعمل أنجز، حتى لاتكون ثمة عظمة سهلة المنال ويمكن الحصول عليها من غير كد ولا عرق، وأن تكون المطامح قد ظلت موجهة أمدا طويلا تعمل فى سبيل غرض معين قبل أن يتحقق لها مناله.

ويجب أن تعمل الحكومات ما فى وسعها لتعيد الناس إلى محبة المستقبل، تلك المحبة التى لم تعد الأديان ولا الأحوال الاجتماعية توحى إليهم بها، ويجب عليها، من غير أن تقول ذلك صراحة، أن تعلم الجماعة بشكل عملى، كل يوم أن الثروة والشهرة والقوة لاتكون إلا جزاء العمل، وأن النجاح العظيم لايكون إلا بعد سعى متصل وراء تحقيق الرغبات البعيدة المدى، وأن لاشيء يدوم إلا إذا جاء نتيجة العمل والكدح.

فإذا ما تعود الناس أن يستشفوا من بعيد ما يحتمل أن يصيبهم من هذه الحياة الدنيا، وأن يعيشوا على الأمل، لم يعودوا يكتفون بأن يحصروا تفكيرهم كله فى نطاق أعمارهم المقدرة فى هذه الدنيا، بل يكونوا مستعدين دائماً لأن يجتازوا حدودها ويتطلعوا بأنظارهم إلى ما وراءها. ولا يساورنى أى شك فى أن أفراد المجتمع، إذا ما تدربوا على أن يفكروا فى مستقبلهم فى هذه الحياة الدنيا، سيقتربون شيئاً فشيئاً وعلى غير وعى منهم من المعتقدات الدينية. وهكذا نرى أن الوسيلة التى تجعل الناس يعيشون من غير دين، إلى حد ما، قد تكون هى بعد كل شيء، الوسيلة الوحيدة التى بقيت لنا لإعادة الناس إلى الإيمان بطرق طويلة متعرجة غير مباشرة.

الفصل الثامن عشر

كل مهنة شريفة
محـترمة فى نظـر الأمـريكيين

لاتوجد فى الأمم الديمقراطية ثروات موروثة، فكل إنسان فيها يعمل لكسب رزقه، أو قد عمل فعلاً، أو عمل والداه من قبل، ومن ثم كانت فكرة العمل والكدح تخطر على العقل من كل ناحية على أنها حالة الوجود البشرى الضرورية الطبيعية الشريفة، فليس العمل بالأمر المستهجن عند مثل هذه الشعوب، وإنما هو موضع شرف واحترام، فليس التحزب ضده، بل فى جانبه. فالرجل الغنى فى الولايات المتحدة يعتقد أنه مدين للرأى العام بتخصيص أوقات فراغه إلى نوع من الأعمال الصناعية أو التجارية أو إلى الاشتغال بالشئون العامة، فعار عليه إن هو قصر حياته كلها على أن يعيش فحسب. فللتخلص من التزام العمل هذا، قام عدد كبير من ثراة الأمريكيين يتجهون إلى أوربا حيث يجدون بضع بقايا متخلفة من المجتمع الأرستقراطى منتشرة فى شتى النواحى، وحيث لايزال الكسل بعدُ بينهم موضع إجلال وتكريم.

لاتضع المساواة فى الأحوال الاجتماعية فكرة العمل ذاتها فى موضع تكريم فحسب، بل إنها لترفع شأن فكرة كل عمل يؤدى إلى ربح مادى.

أما فى الأمم الأرستقراطية، فليس العمل ذاته هو المحتقر، وإنما المحتقر هو ذلك النوع من العمل الذى يراد به الربح المادى؛ فالعمل فى ذاته شريف عندما يقوم به المرء مدفوعاً بالمطامح وبالفضيلة. ومع ذلك فكثيراً ما يحدث فى المجتمع الأرستقراطى، ألّا يكون من يعمل حباً فى شرف العمل غير شاعر بجاذبية الربح وروعته، فهاتان الرغبتان لاتمتزجان إلا فى أعماق نفسه، فتراه يحرص على أن يخفى عن العيون النقطة التى يتلاقيان فيها، بل إنه ليسره أن يخفيها حتى عن نفسه هو، فليس فى البلاد الأرستقراطية سوى قلة من الموظفين العامين لايتظاهرون بأنهم إنما يخدمون بلادهم من غير أى دافع من المصلحة الشخصية، فليست مرتباتهم سوى شىء عارض، لايفكرون فيه إلا قليلاً، بل إنهم يتظاهرون دائماً بأنهم لايفكرون فيه مطلقاً. وهكذا يحتفظون بفكرة الربح منفصلة عن فكرة العمل، ومهما أمكن الجمع بينهما فى الواقع فالناس لايفكرون فيهما معاً.

أما عند الشعوب الديمقراطية فهاتان الفكرتان، على العكس مما عند الأمم الأرستقراطية، متحدتان دائماً اتحاداً محسوساً. ولما كانت الرغبة فى الرفاهية رغبة عامة فى جميع الناس، وكانت الثروات قليلة أو متقلبة، وكل امرىء يود أن يزيد مصادره المالية أو أن يزود أبناءه وذريته بمصادر أخرى جديدة، فقد صار الناس يرون فى وضوح أن المكسب هو وحده الذى يحفزهم إلى العمل، فإن لم يكن وحده، فهو على الأقل واحد من عوامل عدة تدفعهم إلى العمل. وحتى أولئك الذين لا يحفزهم أساساً سوى الشهرة وبعد الصيت يعرفون بالضرورة كلَ المعرفة فكرة أنهم ليسوا مدفوعين إلى العمل بهذا الحافز وحده، ويستكشفون أن الرغبة فى الحصول على المال تختلط فى أذهانهم بالرغبة فى جعل الحياة زاهية رائعة.

فحينما يعتقد أعضاء الجماعة كلهم: أن العمل ضرورة شريفة من ضرورات أحوال البشر؛ ومن جهة أخرى، حينما يقوم الناس بالعمل وقصدهم كله أو بعضه الحصول على الربح، زالت تلك المسافات الشاسعة التى تفصل بين الحرف والمهن المختلفة فى المجتمعات الأرستقراطية. فإن لم يكونوا جميعاً متشابهين، فثمَّ ناحية واحدة، على الأقل، يشاركون فيها كلهم. فالناس فى كل مهنة يعملون فيها من أجل المال. فالأجر أمر يشترك فيه الناس أجمعون، وإنه ليضفى عليهم مظهراً من مظاهر الوحدة والتماثل.

وهذا يفسر لنا آراء الأمريكيين فى احترام المهن المختلفة. فالمرء لا يجد نفسه فى أمريكا منحطاً لأنه يشتغل، فكل الناس حوله يشتغلون مثله، وهو ليس ذليلاً لأنه يعمل بأجر، لأن رئيس الولايات المتحدة نفسه يعمل كذلك نظير أجر يتناوله، فهو يستأجر ليأمر، كما أن الخادم يستأجر ليخدم ويطيع الأوامر. فكل الحرف والمهن تتطلب فى أمريكا كدحاً يزيد أو يقل، وتدر ربحاً كبيراً أو قليلاً، ولكنها ليست عالية أبداً، ولا منخفضة أبداً. فكل مهنة شريفة محترمة.

الفصل التاسع عشر

معظم الأمريكيين يعملون فى المهن الصناعية

ربما كانت الزراعة هى الفن الوحيد بين سائر الفنون النافعة الذى يتقدم ببطء شديد فى البلاد الديمقراطية، حتى إنها لكثيراً ما تبدو فنا جامداً لا يتقدم، على حين تتقدم المهن الأخرى كلها بخطى واسعة نحو الكمال. ومن جهة أخرى تؤدى معظم الميول والعادات التى تتولد من تساوى الناس فى الأحوال الاجتماعية، تؤدى بهم بطبيعة الحال إلى الاشتغال بشئون التجارة والصناعة.

لنفرض أن رجلاً نشيطاً حراً مستنيراً، لديه ما يكفيه من وسائل العيش؛ ونفسه تحيش مع ذلك بالكثير من الرغبات، فهذا الرجل المفروض، أفقر من أن يحيا حياة الكسل والدعة، وغنى فى الوقت نفسه الغنى الذى يشعره بأنه بعيد عن متناول الحاجة والفاقة؛ فلا غرو إن اتجه فكره إلى النظر فيما يحسن أحواله. لأنه أصبح يميل إلى تلك المتع المادية التى يميل إليها آلاف الناس حوله، وقد أخذ فعلاً يتمتع بها وأصبح يتلهف على الاستزادة من الوسائل التى تمكن له من الحصول عليها بشكل أتم. ولكن العمر ينقضى، والوقت قصير، فماذا يصنع هو إذن؟ إن الزراعة تعده بثمرات لجهوده تكاد تكون يقينية، ولكنها بطيئة، والناس لا يثرون بها من غير جهد وعمل كادح، فهى لا تصلح إذن إلا لمن يملكون ثروة تفيض عن حاجاتهم، أو للذين يدفعهم الفقر إلى القناعة بما يسد الرمق. وسرعان ما يوطن هذا الرجل المفروض عزمه على أن يتخذ له حرفة أخرى فيبيع قطعة الأرض التى عنده ويغادر مسكنه، ويغامر بالالتحاق بمهنة خطرة ولكنها تدر عليه أرباحاً طيبة.

والجماعات الديمقراطية حافلة بمثل هذا النوع من الناس، وإن عددهم ليزداد بازدياد المساواة فى الأحوال الاجتماعية فيها. فالديمقراطية لا تزيد عدد الرجال العاملين فحسب، بل إنها لتجعلهم يفضلون نوعاً معيناً من العمل على آخر. فبينما هى تنفرهم من الزراعة، إذا بها تحثهم على الالتحاق بالعمل فى التجارة والصناعة.

هذا وتتجلى هذه الروح نفسها واضحة حتى فى أوسع الناس ثراء فى مثل هذا المجتمع،

فمهما أثرى الرجل فى البلاد الديمقراطية ، فإنه يظل مع ذلك نهماً ، يقول : هل من مزيد ، فهو يعرف أنه أقل ثراء مما كان عليه والده ، ويخشى أن يكون أولاده أقل ثراء منه . فلا غرو أن كان معظم الأغنياء الذين فى البلاد الديمقراطية يرغبون باستمرار فى الاستزادة من الثروة ، حتى صاروا يولون وجوههم بطيعة الحال شطر التجارة والصناعة ، فهما فى نظرهم أسرع الوسائل وأنجعها إلى ما يصبون إليه من ثراء . وهم فى هذه الناحية يشتركون مع الفقراء فى نزعاتهم الفطرية ، من غير أن يشعروا مثلهم بالعوز والحاجة ؛ ولعل الأحرى بنا أن نقول إنهم مدفوعون بأقوى دوافع الحاجة ، أى بدافع الخوف من الفشل فى هذه الدنيا .

فالأغنياء فى البلاد الأرستقراطية هم الذين بيدهم الحكم كذلك ؛ فانشغالهم بالمسائل العامة الرئيسية باستمرار ، يبعدهم عما تتطلبه شئون الصناعة والتجارة من الاهتمام . ومع ذلك فإن حدث أن وجه أحدهم عنايته إلى الأعمال قامت فى سبيله إرادة الجماعات التى ينتمى إليها تمنعه من المضى فيما اختار ، فمهما تشكى الناس من حكم الغالبية العديدة فإنهم لا يستطيعون أن يتخلصوا من نيره تماماً ، فحتى بين الهيئات الأرستقراطية التى تأبى بكل عناد أن تعترف بما للأغلبية القومية من حقوق ، قد تتكون غالبية خاصة تتولى بنفسها حكم سائر الناس .

وفى البلاد الديمقراطية ، حيث لا يعد المثال سبباً لتولى صاحبه المناصب السياسية ، بل كثيراً ما يكون السبب فى إبعاده عنها ، لا يعرف الأغنياء كيف يفيدون مما لديهم من الوقت الفراغ . وعندئذ تدفعهم عوامل شتى إلى العمل والنشاط ؛ ومن هذه العوامل قلق رغباتهم ، وعظم مطامعهم ، وسعة مواردهم ، وميلهم إلى كل غريب خارق للعادة ؛ وهو ميل كثيراً ما يشعر به معظم الذين ارتفعوا عن المستوى العام للشعب بأية وسيلة كانت . فالتجارة هى الطريق المفتوح أمام هؤلاء الأغنياء ، وليس ثمة شىء أعظم منها ولا أروع فى البلاد الديمقراطية ، فهى تسترعى انتباه الناس ، وتملأ خيال الجماهير ؛ فإليها يتجه أصحاب الهمم النشيطة . وليس ثمة شىء يستطيع أن يمنع الأغنياء من الاشتغال بالأمور التجارية ، فلا تحزباتهم الخاصة ، ولا تحزبات غيرهم يمكن أن تقف فى سبيل اشتغالهم بها . هذا ، والأغنياء فى البلاد الديمقراطية لا يكونون أبداً هيئة معينة ، لها آدابها الخاصة بها فى السلوك ، ولها نظمها ولوائحها . فالآراء الخاصة بطبقتهم لا يمكن أن تحول بينهم وبين الاشتغال بالتجارة ، والآراء العامة الذائعة فى وطنهم تستحثهم إلى الاشتغال بها . وزيادة على ذلك فإن كانت الثروات الضخام التى فى جماعة ديمقراطية ترجع إلى نمو التجارة ، فلابد من توالى أجيال عدة قبل أن يترك أصحاب هذه الثروات عادة اشتغالهم بالأعمال ، صناعية كانت أو تجارية ، تركاً تاماً .

وإذا كان الأغنياء فى البلاد الديمقراطية مضطرين إلى الاقتصار على الدائرة الضيقة التى تتركها لهم السياسة ، اندفعوا من كل جانب يغامرون فى المشروعات التجارية ، حيث

يستطيعون أن يزيدوا ميزاتهم الطبيعية ويستخدمونها . والحق إنا لنستطيع، حتى بما فى مشروعاتهم الصناعية الكبرى من جرأة وضخامة، أن نعين ذلك القدر الضئيل الذى تناله الصناعات الإنتاجية منهم ، لو أنهم كانوا قد ولدوا فى بلاد أرستقراطية .

وثم ملاحظة شبيهة بهذه تصدق كذلك على جميع الذين يعيشون فى بلاد ديمقراطية سواء كانوا أغنياء أو فقراء . فأولئك الذين يعيشون وسط التقلبات الديمقراطية يرون أمام أعينهم باستمرار صورة الحظ والمصادفة، فينتهى بهم الأمر أن يميلوا إلى جميع المشروعات التى يلعب فيها الحظ دوراً ظاهراً . ومن ثم اتجه الناس جميعاً إلى العمل فى التجارة، لا لما تعدهم به من أرباح فحسب، بل لأن العمل فيها مثير باستمرار .

لم يمض على تحرر الولايات المتحدة الأمريكية من الاستعمار البريطانى سوى نصف قرن . فعدد الثروات الضخمة فيها لايزال قليلاً، ورؤوس الأموال نادرة . ومع ذلك لم يتقدم شعب فى العالم خطوات سريعة فى التجارة والصناعة مثلما تقدم الشعب الأمريكى ، وهم ينشئون الآن ثانى دولة بحرية فى العالم ؛ وبالرغم من أن مصنوعاتهم تواجه عقبات طبيعية كأداء يشق التغلب عليها ، فهذه العقبات لم تحل بينهم وبين أن يتقدموا كل يوم خطوات واسعة .

ففى الولايات المتحدة تنفذ أضخم المشروعات الصناعية والتجارية فى سهولة ويسر ، فجميع الأهالى يشتغلون بالصناعات المنتجة، ولا يتوانى أفقر أعضاء الجمهورية، وأوسعهم ثراء فى ضم جهودهم بعضهم إلى بعض كى يتضافروا على تحقيق هذه الأغراض . فلا غرو إن كان الغريب يدهش دائماً من أن يرى الأعمال العامة الجسيمة التى تضطلع بتنفيذها أمة لا أثرياء فيها – إن صح لنا هذا التعبير . فالأمريكيون لم يصلوا إلا بالأمس القريب إلى الأقاليم التى يقطنونها . وهاهم قد غيروا وجه الطبيعة كله لمصلحتهم، فوصلوا نهر هدسن بنهر المسيسيبى، وجعلوا المحيط الأطلسى يتصل بخليج المكسيك عبر مسافة الخمسمائة فرسخ التى تفصل بين البحرين . هذا وإن أطول الخطوط الحديدية التى مدت إلى اليوم ، مدت فى أمريكا .

ولكن الذى يثير دهشتى فى الولايات المتحدة أكثر من غيره، ليس جلال بعض المشروعات الرائعة، بل عدد تلك المشروعات الصغيرة التى ينفذونها ، وهو عدد لايحصى . فكل المزارعين فى الولايات المتحدة ، أو جلهم ، يجمعون بين الزراعة وحرفة أخرى ، بل إن معظمهم ليجعلون من الزراعة نفسها تجارة . ويندر أن يحدث فى أمريكا أن يستقر مزارع فى الأراضى التى يفلحها استقراراً دائماً ولا سيما فى أراضى الغرب البعيد حيث يقوم المزارع باستصلاح الأرض وحرثها بنية أن يعود ويبيعها ، لا ليتولى زرعها بنفسه ؛ وقد ينشىء بيتاً فى الضيعة بأمل أن يبيعه بثمن طيب عندما تتبدل أحوال البلاد من جراء تزايد عدد السكان .

ففى كل سنة يصل إلى الولايات الجنوبية أفواج كثيرة من الناس من الشمال ليستقروا فى البقاع التى يزرع فيها القطن وقصب السكر. فهؤلا الأقوام يزرعون الأرض على نحو يجعلها تنتج لهم فى بضع سنين ما يدر عليهم الأرباح الوفيرة التى تجعلهم أغنياء حقاً. ومع هذا فهم لا يزالون يتطلعون إلى الوقت الذى يسمح لهم فيه بالعودة إلى وطنهم ليستمتعوا فيه بما أصابوا من أموال. وهكذا نرى الأمريكيين ينقلون خبرتهم بالأعمال (التجارية والصناعية) إلى الشئون الزراعية، وأن غرامهم بالتجارة ليتجلى كذلك فى سائر الحرف الأخرى.

وهم يتقدمون بخطى واسعة فى كل ميدان من ميادين الإنتاج لأنهم يكرسون لها كل جهودهم؛ ولهذا السبب عينه أصبحوا معرضين لأزمات حادة لم يكونوا يتوقعونها. وإذ كانوا يشتغلون جميعاً بالتجارة فقد صارت شئونهم التجارية تتأثر بشتى العوامل المختلفة المعقدة كل التعقيد. حتى استحال عليهم التكهن بما قد يقوم فى سبيلهم من عقبات. ولما كانوا يشتغلون بالصناعات والحرف المنتجة فأقل صدمة تصيب الأعمال تعرض الثروات الخاصة كلها للارتباك. وتعرض الدولة ذاتها للخطر فى الوقت نفسه. وفى اعتقادى أن تكرار حدوث هذا الذعر التجارى مرض متوطن فى الأمم الديمقراطية فى عصرنا الحاضر. ولا شك فى أن التخفيف من أخطاره أمر ميسور. أما الشفاء منه فمتعذر. لأنه لم ينشأ فى ظروف عارضة بل نشأ فى أمزجة هذه الأمم ذاتها.

الفصـــل العشـــرون

قد تؤدى الصناعة إلى قيام أرستقراطية

أوضحنا فيما سبق أن الديمقراطية تعاون على تقدم الصناعات الإنتاجية، وتزيد عدد المشتغلين بها زيادة لاتقف عند حد. وسنبين الآن الطريق الجانبية التى قد تمكن لرجال الصناعة من أن يعيدوا هم بدورهم الناس إلى الأرستقراطية.

فمن المقرر أن العامل الذى يظل يعمل كل يوم فى إنجاز تفاصيل جزئية معينة لاتتغير سيؤدى به عمله هذا إلى إنتاج السلعة فى النهاية بطريقة أيسر، وفى زمن أقصر، وبتكاليف أقل. ومن المقرر كذلك، أن تكاليف إنتاج السلع المصنوعة تقل بحسب مدى استعداد المصنع الذى يخرجها، وبحسب مقدار رأس المال المستثمر فيه. هذه حقائق معروفة من قديم الزمان، ولكن الأدلة على سدادها لم تقم إلا فى عصرنا الحاضر. فقد طبقت تلك الحقائق فعلاً على أنواع كثيرة من الصناعات البالغة الأهمية، وستطبق تدريجياً على ما هو أقل منها شأناً. ولست أعرف شيئاً أجدر باستدعاء المزيد من اهتمام المشترعين أكثر من هاتين البديهيتين الجديدتين من بديهيات علم الصناعة.

فعندما يكون العامل مكلفاً أن يعمل باستمرار فى صنع جزء واحد فحسب من سلعة معينة لابد أن ينتهى به الأمر إلى اكتساب مهارة فائقة فى أداء هذا العمل، ولكنه يفقد فى الوقت نفسه قدرته على استخدام عقله فى توجيه العمل فى جملته. فهو يزداد كل يوم مهارة ويقل اجتهاداً، حتى يحق لنا أن نقول فيه إنه كلما تحسن عاملاً انحط إنساناً. فما عسى أن يتوقع الناس من رجل أنفق عشرين سنة من عمره فى صنع رؤوس الدبابيس مثلاً ؟ وفيم ينتظر منه أن يستخدم ذلك العقل الإنسانى الجبار الذى كثيراً ما هز العالم، إلا فى البحث عن طريق أمثل لصنع رؤوس الدبابيس ؟ فبعد أن يسلخ العامل شطراً كبيراً من عمره فى العمل بهذه الطريقة تصبح أفكاره كلها محصورة فى موضوع عمله اليومى هذا، ويتخذ جسمه عادات معينة ثابتة لايستطيع أبداً أن يقلع عنها، وجملة القول أن مثل هذا العامل لم يعد ملك نفسه، بل ملك المهنة التى اختار العمل فيها. وعبثاً تحاول القوانين، وتحاول العادات الأخلاقية أن تزيل كل الحواجز التى قامت حوله، وأن تفتح له من كل جانب آلاف الطرق التى تؤدى إلى الثراء. فقد أضحت نظرية معينة من نظريات الصناعة

أقوى من القوانين ومن العادات الأخلاقية ، تقيده بمهنة معينة ، بل وبقعة معينة لا يستطيع منها فكاكاً ، لأنها عينت له مركزاً محدداً ثابتاً فى المجتمع الإنسانى ، ليس له أن يتجاوزه إلى غيره ؛ لقد جعلته جامدًا وسط عالم متحرك .

وكلما توسع الناس فى تطبيق مبدأ تقسيم العمل ، ازداد العامل ضعفاً على ضعفه وضاق أفقه العقلى وزادت تبعيته لسواه . وهكذا نرى أن الفن يتقدم والصانع يتدهور . ومن جهة أخرى ، فكلما استبان أن المنتجات الصناعية تصبح أرخص ثمناً وأحسن نوعاً ، إذا ما اتسع نطاق المصنع وازداد رأس المال المستثمر فيه - ازداد عدد الأثرياء الذين ينزلون إلى ميدان الصناعة ، وهو ميدان كان متروكاً من قبل للصناع الفقراء والجهلة . فجسامة الجهود التى يجب أن تبدأ فى هذا الميدان ، وأهمية النتائج المتوقعة من ورائها ، تجذبانهم إليه ، وهكذا نرى أن علم «الصناعة» يرفع طبقة أصحاب الأعمال فى الوقت الذى ينزل فيه بطبقة العمال .

فبينما يعمل العامل على تركيز كل همه وكل عقله فى دراسة جزء معين من أجزاء السلعة الواحدة ، يقوم صاحب العمل بالإشراف على هذه السلعة كلها فى جملتها ، ومن كل نواحيها ، فيتسع عقله ، على حين يضيق عقل الصانع . ولا يمضى زمن طويل حتى لا يتطلب هذا الصانع فى عمله سوى ازدياد قوته الجسمية ولا حاجة به لاستعمال عقله وذكائه ، على حين يكون صاحب العمل بحاجة إلى مزيد من العلم ، بل إلى عبقرية ، حتى يتحقق النجاح لمصنعه . وسرعان ما يصبح أشبه ما يكون بمن يتولى إدارة امبراطورية واسعة الأجزاء ؛ أما العامل فيقترب من البهم السوائم .

ليس ثمة شبه إذن بين الصانع ورب العمل ؛ وزيادة على ذلك فالفوارق التى بينهما تزداد يوماً بعد يوم ، فما أشبه الصلة التى بين الاثنين بالحلقتين اللتين فى طرفى سلسلة طويلة ، كل منهما يملأ المركز الذى أعد له ، فلا يبرحه ؛ فأحدهما يعتمد باستمرار اعتماداً كبيراً وضرورياً على الآخر ، ويبدو كأنه إنما خلق ليطيع ، على حين يبدو الآخر أنه خلق ليأمر فيطاع . فما عسى أن يكون هذا غير نوع من الأرستقراطية عينها ؟

وكلما ازدادت أحوال الناس الذين تتكون منهم الأمة مساواة ، ازداد الطلب على السلع المصنوعة ، وأصبح عاماً ، واتسع اتساعاً كبيراً ، ذلك إلى أن رخص الأسعار الذى يجعل هذه السلعة فى متناول رقيقى الحال ، يصبح هو نفسه عنصراً هاماً من عناصر النجاح . ومن ثم كان كل يوم يمر يشاهد عدداً من الرجال واسعى الثراء والمتعلمين تعليماً طيباً يقبلون على توجيه ثرواتهم ومعلوماتهم إلى الصناعة ، ويعملون على إنشاء المؤسسات الصناعية الضخمة ، وعلى تقسيم العمل فيها تقسيماً دقيقاً ، وبذلك يواجهون الطلبات الجديدة التى تنهال عليهم من كل حدب وصوب . وهكذا كلما اتجهت الكثرة من الناس فى الأمة إلى الديمقراطية ازدادت تلك الطبقة الخاصة التى يعمل أفرادها فى الصناعة،

أرستقراطية . فيزداد الناس تماثلاً فى ناحية ، وتفاوتاً فى الأخرى ، فعدم المساواة يزداد فى الطبقة الصغيرة العدد بنفس النسبة التى يقل بها فى المجتمع الكبير . ومن هنا يبدو أنّا إن تعمقنا الأمر تبين لنا : أن الأرستقراطية تنشأ بمجهود طبيعى وسط الديمقراطية نفسها .

ولكن ليس ثمة شبه بين هذا النوع من الأرستقراطية وبين الأنواع السابقة عليه بحال من الأحوال . ويلاحظ على الفور أن هذه الأرستقراطية الجديدة استثناء فظيع قائم وسط الحالة الاجتماعية فى جملتها ، ذلك لأنها لا تصدق إلا على الصناعة نفسها ، وعلى بعض المهن الصناعية دون غيرها . فالمجتمعات الأرستقراطية الصغيرة التى يكونها طائفة من رجال الصناعة وسط تلك الديمقراطية الهائلة التى فى عصرنا - هذه المجتمعات الصغيرة تحتوى ، كما كانت تحتوى المجتمعات الأرستقراطية الكبرى فى العصور السالفة ، على أفراد واسعى الثراء ، إلى جانب جمهور كبير بلغ به الفقر كل مبلغ من البؤس والشقاء . فليس لدى الفقراء سوى وسائل قليلة للخلاص من حالتهم هذه كى يصبحوا أغنياء ، باستمرار كل يوم عن اليوم الذى قبله ، أو هم يتركون العمل بعد أن يحققوا أرباحاً طائلة . ومن ثم تكون العناصر التى تتكون منها طبقة الفقراء ثابتة ، أما العناصر التى تتكون منها طبقة الأغنياء فليست كذلك . والحق أن طبقة الأغنياء غير موجودة فى الواقع على الرغم من وجود الأثرياء ، فهؤلاء الأثرياء ليس لهم عواطف ولا أغراض مشتركة ولا تقاليد متبادلة ولا وحدة فى الآمال والأمانى تربطهم . فهم إذن أفراد ، بدون طبقة محدودة لهم تضمهم .

فليس الأغنياء غير متحدين بعضهم مع بعض اتحاداً وثيقاً فحسب ، بل ليس بينهم وبين الفقراء أية رابطة حقيقية . فموقفهم النسبى إزاءهم ليس بالموقف الثابت ، فهم يظلون يقتربون ويتعدون دائماً بعضهم عن بعض بحسب ما تقتضيه مصالحهم . فالعامل يعتمد عادة على صاحب العمل ، لا على أى صاحب عمل بعينه ، فكلاهما يلتقيان فى المصنع ، ولكن أحداً منهما لا يعرف الآخر خارجه . فبينما هما يتلاقيان فى نقطة واحدة ليس إلا فالبون بينهما واسع فى سائر النقاط الأخرى . فصاحب العمل لا يتطلب من العامل غير عمله ، والعامل لا ينتظر من صاحب العمل غير أن يدفع له أجره . فلا صاحب العمل يضطلع بأية التزامات لحماية العامل ، ولا العامل يضطلع بالدفاع عن صاحب العمل ، فليس بينهما أى ارتباط دائم ، لا من حيث العمل ، ولا من حيث الواجب ، فأعضاء الأرستقراطية الناشئة عن العمل يندر أن يسكنوا بين ظهرانى العمال الذين يتولون هم إدارة أمورهم . فليس غرض الأرستقراطية هذه أن تحكم هؤلاء العمال ، بل أن تستغلهم لما فيه مصلحتها ليس إلا . فكل أرستقراطية تنشأ على هذا الأساس لا يكون لها أى سلطان قوى على من تستخدمهم ، وإن نجحت فى الاحتفاظ بهم فترة من الزمن فسيفلتون من قبضتها فى الفترة التى تليها ، فهذه الأرستقراطية لا تعرف كيف تريد أن تعمل ، ولا تستطيع أن تعمل ما تريد .

لقد كانت الأرستقراطية الإقطاعية فى العصور السابقة مقيدة بالقانون ، أو ظنت أنه يضطرها إلى العمل على غوث من يخدمونها . وعلى تخفيف ما يعانونه من متاعب وآلام ، ولكن الأرستقراطية الصناعية فى عصرنا الحاضر تعمل أولاً على إفقار من يخدمونها ، كما تعمل على انحطاطهم . ثم تدعهم يعيشون على صدقات الجمهور . ولا يخفى أن هذه نتيجة طبيعية لما ذكرناه من قبل . إن بين العامل وصاحب العمل علاقات كثيرة . ولكن ليس بينهما ما يمكن أن يسمى « اتحاداً وارتباطاً حقيقياً » .

وعلى الجملة . فإنى أرى أن الأرستقراطية الصناعية الآخذة فى النماء والازدياد أمام أبصارنا . من أقسى الأرستقراطيات جميعها التى ظهرت فى هذا العالم . وهى فى الوقت نفسه من أكثرها انغلاقاً وأقلها خطراً . وعلى الرغم من ذلك كله فإن على أنصار الديمقراطية ومحبيها أن يحرصوا كل الحرص على أن يوجهوا أنظارهم إليها باستمرار ، ويرقبوا أمورها . فإذا ما حدث أن قام بين الناس تفاوت دائم فى أحوالهم الاجتماعية ، وعادت الأرستقراطية تتغلغل من جديد فى شئون العالم . كان لنا أن نتنبأ بأن هذا هو الباب الذى ستعود منه .